أخفياء على نهج الأنبياء

عليهم الصلاة والسلام

د. علي بن مقبول العَمْري

أخفياء على نهج الأنبياء
عليهم الصلاة والسلام

ⓒ علي مقبول أحمد العمري، ١٤٤٢هـ
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر
العمري ، علي مقبول أحمد
أخفياء على نهج الأنبياء./ علي مقبول أحمد العمري - ط١..-
جدة ، ١٤٤٢هـ
٨٠ ص ؛ ١٧×٢٤سم
ردمك: ٦-٥٨٦٥-٠٣-٦٠٣-٩٧٨
١- الفضائل الإسلامية أ. العنوان
ديوي ٢ ,٢١٢ ١٤٤٢/٢٢٧١

رقم الإيداع: ١٤٤٢/٢٢٧١
ردمك: ٦-٥٨٦٥-٠٣-٦٠٣-٩٧٨

الطبعة الأولى
١٤٤٢هـ/٢٠٢٠م

أخفياء على نهج الأنبياء

عليهم الصلاة والسلام

د. علي بن مقبول العَمْري

الطبعة الأولى

١٤٤٢هـ/٢٠٢٠م

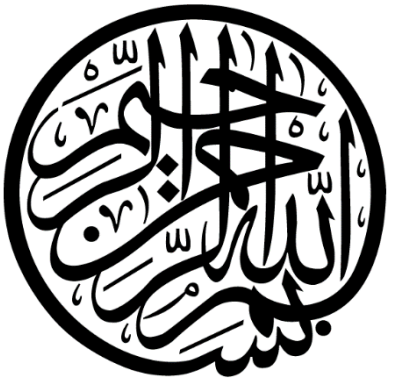

المقدمة

الحمد لله المتفضل بجزيل العطاء، ليس لأفضاله ونعمائه إحصاء، والصلاة والسلام على خير الأنبياء، وسيد الأصفياء، وعلى آله وصحبه أهل الصدق والوفاء.

وبعد:

هذا الكتاب شقيق لكتابي السابق: (أذكياء على نهج الأنبياء)، وكلاهما ينهلان من مشكاة واحدة، ويدعوان إلى علو الهمة والمطالب العالية .. وإن أعظم مَن اقتدى بهم الناس هم الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، فإن الله أمر خير خلقه محمدًا عليه الصلاة والسلام بالاقتداء بهداهم، فقال جلَّ ثناؤه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡۗ﴾ [سورة الأنعام: ٩٠].

وقد اشتمل الكتاب على قصص لأقوام طلبوا مرتبة من المراتب العالية، وهي مرتبة لا ينالها إلا مَن جاهد نفسه جهادًا عظيمًا لتبلغ هذه المرتبة! فإن لهذه النفوس حظوظًا ورغبات تشتهيها، ومن أعظمها حب الثناء والإطراء من الناس، وكذلك طلب الجزاء العاجل من الخلق.

ولكن هنالك أقوام لا يطلبون الثناء والجزاء إلا من الذي يعلم السر وأخفى، وهم لم يكتفوا بهذا بل أخفوا أعمالهم عن الخلق حتى تَصفُوَ لهم هذه النية. وهؤلاء هم أهل الخفاء، أهل عبادة الخفاء، لم يطَّلع على أعمالهم إلا الله تعالى

الذي أخلصوا له طاعاتهم، فهم قد سَمَت همتهم إلى ثواب وجزاء مَن يضاعف الحسنات بغير حساب، ويجازي بالثواب الجزيل على العمل اليسير..

وستجد أيها الموفق في هذا الكتاب قصصًا شتَّى في طاعات شتَّى، وهذا يرشدك إلى أن التنافس في الطاعات لا يقف عند عمل محدد، بل جميع الطاعات هي ميدان للمنافسة، وفي هذا يقول عليه الصلاة والسلام: (اعملوا فكلٌّ مُيسَّرٌ لِما خُلق له). وقد انفرد أهل الخفاء بإخفاء طاعاتهم عن العباد، وتعاملوا من ربّ العباد عز وجلَّ؛ فربحوا بهذا ربحًا عظيمًا لا يربحه إلا أهل الإخلاص.

وستجد أيها الموفق في هذا الكتاب مع قصص السلف قصصًا واقعية لبعض أهل زماننا؛ حتى تعلم أن الناس ما زالوا بخير، وأن التنافس في المراتب العالية ليس محصورًا في المتقدمين وحدهم، وفي مثل هذا يقول عليه الصلاة والسلام: **(مَثَل أمتي مَثَل المطر، لا يُدرَى أولُهُ خيرٌ، أم آخرُهُ)**. فلا تيأس أيها الأخ الكريم، ولا تضعف همتك، وعليك بصدق النية، فإنك تبلغ بها ما لا تبلغه بعملك! وإنك لسعيد إذا كانت لك خبيئة لا يعلمها أحد غير الله جلَّ ثناؤه .. ولعلك تكون من الفائزين بأعلى الدرجات بسبب هذه الخبيئة ..

ونسأل الله الصدق في القول والعمل، أو يوفقنا إلى أن نكون من أهل الدرجات العالية في طاعته، ومن أهل الدرجات العالية في جناته ..

د. علي بن مقبول العَمْري

جوال: ٠٠٩٦٦٥٠٥٦٩٨٧٦٤

أسعد الناس بقلبه، وبعبادته هم الأخفياء، الذين أخلصوا عبادتهم لمعبودهم الحق تبارك وتعالى، والعبادة في الخفاء هي زينة العبد، وسبب ثباته في الدنيا والآخرة، وهي لا تخرج إلا من صاحب قلب تجرَّد لله، وتمكَّن منه الإيمان.

وعبادة الخفاء لا يستطيع فعلها المنافقون، ولا أهل الرياء، ولا أولئك الذين يحبون ثناء الناس، وتقديرهم.

وأهل الخفاء علموا أن أعظم الأعمال درجة عند الله هي ما كان خالصًا له عز وجل، ولذلك حرصوا على سلامة أعمالهم من كل خادش لها، أو مقلل لأجرها، فأخفوا أعمالهم حتى لا يؤثر ثناء الناس على نياتهم، فكرهوا أن يطَّلع عليها أحد، وقال رسول الله ﷺ: (**إن الله يحب العبد التَّقي، الغني، الخَفِي**). رواه مسلم.

وقال ﷺ: (**من استطاع منكم أن يكون له خبء من عمل صالح فليفعل**). رواه الضياء في الأحاديث المختارة، [صحيح الجامع للألباني: ٦٠١٨].

وقال الحسن البصري رحمه الله: (إن كان الرجل لقد جمع القرآن وما يشعر به جاره، وإن كان الرجل لقد فقه الفقه الكثير وما يشعر به الناس، وإن كان الرجل ليصلي الصلاة الطويلة في بيته وعنده الزَّوْر وما يشعرون به، ولقد أدركنا أقوامًا ما كان على ظهر الأرض من عمل يقدرون على أن يعملوه في سر فيكون

علانية أبدًا، ولقد كان المسلمون يجتهدون في الدعاء وما يُسمع لهم صوت، إن كان إلا همسًا بينهم وبين ربهم عز وجل، ذلك أن الله تعالى عز وجل يقول: ﴿ٱدۡعُواْ رَبَّكُمۡ تَضَرُّعًا وَخُفۡيَةً﴾ [سورة الأعراف: ٥٥]، وذلك أن الله تعالى ذكر عبدًا صالحًا ورضي قوله، فقال: ﴿إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا ۝٣﴾ [سورة مريم: ٣] [كتاب الزهد لابن المبارك: ٤٥]. وكلام الحسن البصري هذا يدلك على ما كان عليه أولئك الصالحون من حرص على أعمالهم الصالحة أن يفسدها أي مكدر، ومن هنا ينبغي أن يحرص العاقل على أن يُعَوِّد نفسه أن يكون له نصيب من عبادة الخفاء.

ولشرف عبادة الخفاء كانت صلاة الليل أفضل من صلاة النهار، وقد مدح الله عز وجل أهلها في القرآن، ومدحهم النبي ﷺ في السنة، قال الله تعالى: ﴿أَمَّنۡ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيۡلِ سَاجِدٗا وَقَآئِمٗا يَحۡذَرُ ٱلۡأٓخِرَةَ وَيَرۡجُواْ رَحۡمَةَ رَبِّهِۦۗ قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ۝٩﴾ [سورة الزمر: ٩]. ومدح الله تعالى المؤمنين، فقال: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمۡ عَنِ ٱلۡمَضَاجِعِ يَدۡعُونَ رَبَّهُمۡ خَوۡفٗا وَطَمَعٗا وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ۝١٦﴾ [سورة السجدة: ١٦].

وفي الثناء على أهل الخفاء، ومنزلتهم يوم القيامة، قال رسول الله ﷺ: (**في الجنة غرفة يُرى ظاهرها من باطنها، وباطنها من ظاهرها**)، فقيل: لمن يا رسول الله؟! قال: (**لمن أطاب الكلام، وأطعم الطعام، وبات قائمًا والناس نيام**). رواه الطبراني والحاكم. وعندما تدنو الشمس من الخلائق يوم القيامة مقدار ميل؛

فإن أهل الخفاء يكونون ممن يظلهم الله في ذلك اليوم يوم لا ظل إلا ظله عز وجل، قال عليه الصلاة والسلام: (**سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله**)، وذكر من هؤلاء السبعة: (**ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال: إني أخاف الله، ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه، ورجل ذكر الله خاليًا ففاضت عيناه**). رواه البخاري ومسلم. فهؤلاء ثلاثة على نسق واحد من عدد السبعة الذين ورد ذكرهم في الحديث، وهذا يدلك على شرف مكانة أعمال الخفاء.

===❊❊❊===

هذا باب عظيم من أبواب أهل الخفاء، وهو أصل العبادة، ويدخل فيه كمال التوحيد، والإيمان؛ وكل عمل صالح يُبْتغي به وجه الله فإن أصل هذا القصد هو الإخلاص، وقد قال رسول الله ﷺ: (**إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى** ..). رواه البخاري ومسلم، وقال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: (من هاجر يبتغي شيئا فهو له، قال: هاجر رجل ليتزوج امرأة يقال لها: أم قيس، فكان يقال له: مهاجر أم قيس). [سير أعلام النبلاء: ٩/ ١٤].

وقد افتتح الإمام البخاري صحيحه بحديث: (**إنما الأعمال بالنيات**..) لفائدة ذكرها ابن بطال، قال: (وإنما قدَّم البخاري حديث الأعمال بالنيات في أول كتابه؛ ليُعلمَ أنَّه قَصَدَ في تأليفه وجه الله عز وجل، ففائدة هذا المعنى، أن يكون تنبيهًا لكل من قرأ كتابه، أن يقصد به وجه الله تعالى كما قصده البخاري في تأليفه). [شرح صحيح البخاري لابن بطال: ١/ ٣١].

ومن تأمل في أقوال العلماء العارفين؛ فَهِمَ المقصود من الإخلاص.

- ولذلك لما سئل أبو سليمان الداراني عن أقرب أحوال العبد من الله؟ قال: (أن يطّلع على قلبك وأنت لا تريد من الدنيا والآخرة إلا هو)! [روضة المحبين: ٤٣٩].

- وقال الإمام مالك: (مَن أحب أن يُفْتَحَ له فُرجةً في قلبه، وينجو من غمرات الموت، وأهوال يوم القيامة؛ فليكن في عمله في السر أكثر منه في العلانية). [ترتيب المدارك: ٢/ ٥١].

من فضلك أن لا تُعرَف

وكان الصالحون الأوائل من الأخفياء يحبون أن لا يعرفهم الناس، حتى تصفو لهم أعمالهم من مكدرات الرياء .. ولما قَدِم الإمام عبد الله بن المبارك إلى المصيصة؛ سأل عن محمد بن يوسف الأصبهاني، فلم يعرفه أحد، فلما لقيه ابن المبارك قال له: (من فضلك يا محمد لا تُعرف)! وابن المبارك نفسه كما يحكي لنا الحسن البصري: (أنه كان مع ابن المبارك فأتيا على سقاية والناس يشربون منها، فدنا منها ليشرب ولم يعرفه الناس، فزحموه ودفعوه، فلما خرج قال للحسن: ما العيش إلا هكذا! يعني حيث لم نُعرف ولم نُوَقَّر)! [صفة الصفوة: ٢/ ٣٢٣].

لسنا نشتري بدينا

كان أهل الشام يفخرون بعابدهم وزاهدهم عبد الله بن محيريز، وفي هذا يقول رجاء بن حيوة: (إن يفخر علينا أهل المدينة بعابدهم ابن عمر؛ فإنا نفخر عليهم بعابدنا ابن محيريز)، وكان أبو زرعة يقول عنه: (من كان مقتديًا فليقتد بمثل ابن محيريز، فإن الله لم يكن ليضل أمة فيها ابن محيريز)! وكان ابن محيريز

حريصًا على عبادة الخفاء، حتى قال فيه خالد بن دريك: (كانت في ابن محيريز خصلتان ما كانتا في أحد ممن أدركت: كان أبعد الناس أن يسكت عن حق في الله من غضب ورضىً، وكان من أحرص الناس أن يكتم من نفسه أحسن ما عنده)، ومن أخبار ابن محيريز رحمه الله: دخل دكانًا يريد أن يشتري ثوبًا، فقال رجل قد عرفه لصاحب المحل: هذا ابن محيريز فأحسن بيعه، فغضب ابن محيريز وطرح الثوب، وقال: (إنما نشتري بأموالنا، لسنا نشتري بديننا)! [تاريخ دمشق: ٣٣/ ١٩، تاريخ الإسلام: ٢/ ١١٢٧].

لا يعُدُّ ما ظهر من عمله شيئًا

هو إمام أهل العراق، وسيد العُبَّاد .. سفيان بن سعيد الثوري رحمه الله، وقال عنه ابن أبي ذئب: (ما رأيت رجلًا من أهل العراق يشبه ثَوْرِيَّكم هذا)! وقال يحيى بن يمان: (ما رأينا مثل سفيان، ولا رأى سفيان مثله، كان سفيان في الحديث أمير المؤمنين)! وكان الإمام سفيان يحب الخفاء في عمله، وهو القائل: (كل شيء أظهرته من عملي فلا أعده شيئًا؛ لعجز أمثالنا عن الإخلاص إذا رآه الناس)! وكان رحمه الله لا يحب الشهرة، وفي ذات مرة عمل أجيرًا مع جمَّال إلى مكة، والجمَّال لا يعرفه، فأمروه يعمل لهم خبزة، فلم يحسن خبزه فضربه الجمال، فلما قدموا مكة دخل الجمَّال المسجد الحرام فإذا سفيان قد اجتمع اليه الناس، فقال الجمال لصاحب له: أليس هذا صاحبنا؟! قال: بلى! وسألوا عنه فقيل لهم: هذا سفيان الثوري، فاشتد على الجمَّال ما كان منه إليه،

فمكث حتى انفض الناس عنه، فتقدم إليه فقال: لم نعرفك يا أبا عبد الله! فقال: مَن يُفسد طعام الناس يصيبه أكثر من ذا! [الجرح والتعديل: ١/ ٥٩، الثقات للعجلي: ١/ ٤٠٩، غيث النفع: ٦٥٦].

يخشى من الرياء بعد الموت!

العالم الرباني .. الزاهد .. إمام الورع .. بشر بن الحارث، المشهور بالحافي، كان إمامًا في إخلاص العمل، وحب الخفاء، وقيل له: (ألا تحدِّث؟ فقال: أنا أشتهي أن أحدِّث، وإذا اشتهيت شيئًا تركته)! وكان يقول: (أستغفر الله، إن لذكر الإسناد في القلب خيلاء)! وكان رحمه الله يقول: (لا ينبغي لأمثالنا أن يظهر من أعماله الصالحة ذرة، فكيف بأعمالنا التي دخلها الرياء؟! والأولى بأمثالنا الكتمان، قال: وقد بلغنا أن عيسى عليه الصلاة والسلام كان يقول للحواريين: إذا كان يوم صوم أحدكم فليدهن رأسه ولحيته، ويمسح شفتيه، لئلا يرى الناس أنه صائم). بل كان بشر الحافي يرى أن الرياء يكون حتى بعد الموت! قال: (قد يكون الرجل مرائيًا بعد موته، يحب أن يكثر الخلق في جنازته)! [سير أعلام النبلاء: ١٠/ ٤٧٠، غيث النفع: ٦٥٧].

يخشى أن تأكل الشهرة حسناته

أيوب بن كيسان، والمشهور بـ أيوب السختياني .. إمام من أئمة الحديث، قال عنه شعبة: (كان سيد الفقهاء)! وقال عنه الحسن البصري: (أيوب سيد

شباب أهل البصرة). وكان رحمه الله يكره الشهرة، وكان يقول: (لقد شُهِرْنا في هذا المِصْر، لو خرجنا منه)! وكان أيوب يجالس الوليد بن يزيد بن عبد الملك بمكة، قبل أن يلي الوليد الخلافة؛ فلما صار الوليد خليفة كان أيوب يقول في دعائه: (اللهم أَنْسِه ذكري)! وكان رحمه الله يحزن عندما يرى اهتمام الناس به، فقال مرة لأبي مسعود الجريري: (إني أخاف ألا تكون الشهرة قد أبْقَت لي عند الله حسنة، إني لأمر بالمجلس فأُسلم عليهم وما أرى أن فيهم أحدًا يعرفني، فيردون عليَّ السلام بقوة، ويسألونني مسألة كأن كلهم قد عرفني، فأيّ خيرٍ مع هذا)؟! [تاريخ الإسلام: ٣/ ٦١٨].

يبكي خوفًا من الشهرة!

كان البهلول بن راشد مستجاب الدعاء، وعالمًا، ونظر إليه مالك بن أنس ذات مرة فقال: (هذا عابد بلده)! وكان رحمه الله ممن يحب الخفاء ولا يجب الشهرة؛ وقال له رجل يومًا يا مرائي! فقال له البهلول: (قد أخبرتها بذلك - يعني نفسه - فأبت عليَّ ولم تقبل، فاجتمع عليها شهادتك وعلمي)! وهذا من شدة خوفه من الرياء. ودُفع إلى البهلول ذات مرة كتاب ففضه، فإذا فيه: من امرأة من سمرقند من خراسان، مَجُنَت مُجُونًا لم يمجُنْه أحد إلا هي! ثم تابت إلى الله، وسألت عن العُبَّاد في أرضه، فوُصف لها أربعة: بهلول بإفريقية أحدهم، فسألتُك بالله يا بهلول ألا دعوت الله في أن يديم لي ما فتح لي فيه. فسقط الكتاب

من يده وخرَّ على وجهه، وجعل يبكي حتى لصق الكتاب بطين دموعه، ثم قال: يا بهلول، كان الذِّكر لرباح فلما مات؛ صار لبهلول! وما ذلك إلا من خبيئة كانت له! [ترتيب المدارك: ٣/ ٨٩].

===❊❊❊===

كانوا يخافون الرياء في تعلُّم العلم وتعليمه، ومن هذا الباب كلفوا أنفسهم الإخلاص فيه، وأن يكون حالهم معه أن يلتمسوا أعلى الدرجات، كما التمسوا في غيره أعلى الدرجات .. بل إن العلماء الربانيين يزجرهم قوله عليه الصلاة والسلام: (**من طلب العلم ليُجَارِيَ به العلماء، أو ليُمَارِيَ به السفهاء، أو ليصرف وجوه الناس إليه؛ أدخله الله النار**). رواه الترمذي وابن ماجه.

وسنرى كيف كان حال العلماء الصالحين، وهم يطلبون أن يكون علمهم لله، وليس لثناء الناس عليهم، أو وصفهم بالعلماء ..

الإمام طاووس بن كيسان

لقد كان طاووس كاسمه جميلًا في قوله، وجميلًا في فعله، وهو من كبار التابعين، وكان ابن عباس -رضي الله عنهما- يكرم طاووس إذا دخل عليه، قال سفيان بن عيينة: (قلت لعبيد الله بن أبي يزيد: مع مَن كنت تدخل على ابن عباس؟ قال: مع عطاء، وأصحابه، قلت: وطاووس؟ قال: أيْهان! ذاك، كان يدخل مع الخواص)! وفي العبادة كان طاووس إمامًا يُقتَدَى به، ويحكي لنا داود بن إبراهيم: (أن الأسد حبس ليلة الناس في طريق الحج، فدق الناس

بعضهم بعضًا، فلما كان السَّحَر ذهب عنهم، فنزلوا، وناموا، وقام طاووس يصلي، فقال له رجل: ألا تنام؟! فقال طاووس: وهل ينام أحد السَّحَر)؟!

وطاووس هذا مرّ عليه الحسن البصري وهو يملي الحديث في الحرم في مكة، وهو في حلقة كبيرة، فدنا منه الحسن، وقال له في أذنه: (إن كانت نفسك تعجبك فقم من هذا المجلس! فقام طاووس فورًا)! [سير أعلام النبلاء: ٥/ ٣٩، غيث النفع: ٦٥٦]. وهكذا العالم الرباني إذا نسِيَ ثم تذكَّر يبادر إلى الحق من غير تأخير .. وقد طلب طاووس لنفسه أعلى الدرجات، وفرَّ من الشهرة طلبًا لما عند الله من الذكر؛ ففاز بمطلوبه، كما فاز كل أولئك العلماء الربانيون بالدرجات العليا من الذكر الحسن في الدنيا، ويُرْجَى لهم الكرامة، والذكر الحسن في الآخرة.

الإمام سفيان الثوري

إنه أستاذ الورع .. وإمام أهل الحديث .. سفيان بن سعيد الثوري .. سار بصدق في طريق العلم فكانت الثمرة الإمامة في العلم والعمل! قال أحمد بن حنبل: (قال لي ابن عيينة: لن ترى بعينيك مثل سفيان الثوري حتى تموت)! وهذه شهادة من إمامين من أئمة المسلمين! وأزيدكم شهادة ثالثة من إمام ثالث، قال ابن المبارك: (كتبت عن ألف ومائة شيخ، ما كتبت عن أفضل من سفيان)!

ولقد كان سفيان الثوري يحاسب نفسه حسابًا شديدًا، ويحرسها من مداخل الرياء في العلم، وقد ظهر هذا في أقواله، وأفعاله، ويرى أن العلم لا يستحقه إلا أهل الإخلاص، والورع، الذين لا يحبون الشهرة .. ومن أقواله في

هذا: (إياك والشهرة فما أتيت أحدًا إلا وقد نهى عن الشهرة)، وقال: (السلامة في أن لا تحب أن تُعرف)، وقال: (ما عالجت شيئًا أشد عليَّ من نيتي)، وقال: (إذا رأيت الرجل حريصًا أنْ يُؤَم به فأخِّرْه). [تاريخ بغداد: ١٠/ ٢١٩، سير أعلام النبلاء: ٧/ ٢٣٧، غيث النفع: ٦٥٦].

الإمام ابن المبارك

هو الإمام في العلم .. والزهد .. والجود .. عبد الله بن المبارك رحمه الله .. ولمَّا أخبروا سفيان بن عيينة بموت ابن المبارك؛ قال: (رحمه الله، لقد كان فقيهًا، عالمًا، عابدًا، زاهدًا، سخيًا، شجاعًا، شاعرًا)!

وكان ابن المبارك يحج عامًا ويغزو عامًا، ومن عجائب أخباره في السفر، قال أبو علي الروذباري: (صحبته في طريق مكة فلما دخلنا البادية قال: تكون الأمير أم أكون أنا؟ قلت: بل أنت، قال: فعليك بالسمع والطاعة، فأخذ المخلاة ووضعها على عاتقه، فقلت: دعني أحمل، فقال: أنا الأمير أم أنت؟ قلت: أنت، فمكثنا ذات ليلة إذا أخذ المطر، فأخذ الكساء فأظلني وترك نفسه إلى الصباح، فوددت أني أمت ولم أقل كن أميرًا! فلما أردت الافتراق قال: يا أبا علي، إذا صحبت إنسانًا فاصحبه هكذا)!

وابن المبارك هذا مع حبه لنشر العلم؛ كان يحتسب النية فيه، ويفر من الشهرة، وكانت النية الصادقة عنده قبل طلب العلم ونشره، فهو القائل: (أول العلم: النية، ثم الاستماع، ثم الفهم، ثم العلم، ثم الحفظ، ثم النشر).

ويخبرنا الحسن البصري عن فرار هذا الإمام من الشهرة في العلم، قال الحسن: (وكانت دار ابن المبارك بمرو كبيرة صحن الدار، نحو خمسين ذراعًا في خمسين ذراعًا، فكنتَ لا تحب أن ترى في داره صاحب علم، أو صاحب عبادة، أو رجلًا له مروءة وقدر بمرو إلا رأيته في داره، يجتمعون في كل يوم خلقًا يتذاكرون، حتى إذا خرج ابن المبارك انضموا إليه، فلما صار ابن المبارك بالكوفة نزل في دار صغيرة، وكان يخرج إلى الصلاة ثم يرجع إلى منزله، لا يكاد يخرج منه، ولا يأتيه كثير أحد، فقلت له: يا أبا عبد الرحمن، ألا تستوحش ها هنا مع الذي كنت فيه بمرو؟ فقال: إنما فررتُ من مرو من الذي تراك تحبه، وأحببتُ ما ها هنا للذي أراك تكرهه لي، فكنتُ بمرو لا يكون أمر إلا أتوني فيه، ولا مسألة إلا قالوا: اسألوا ابن المبارك، وأنا ها هنا في عافية من ذلك). [صفة الصفوة: ٢/ ٣٢٣، الجواهر المضية في طبقات الحنفية: ٢/ ٥٢٩، الديباج المذهب: ١/ ٤٠٧].

الإمام الشافعي

مكان الشافعي في العلم، والفقه، مشهور، وشهادة العلماء له بالعلم مشهور، وحسبنا في فضل علم الشافعي شهادة الإمام أحمد بن حنبل، فيما حكاه لنا محمد بن مسلم بن وَارَة، قال: (لما قدمت من مصر أتيت أبا عبد الله: أحمد بن حنبل لأُسلِّم عليه، فقال لي: كتبت كتب الشافعي؟ فقلت: لا، فقال لي: فرّطت! ما عرفنا العموم من الخصوص، وناسخ حديث رسول الله ﷺ، من المنسوخ حتى جالسنا الشافعي رحمه الله. قال ابن وارة: فحملني ذلك أن رجعت إلى

مصر وكتبتها). وأحمد بن حنبل هو القائل: (إني لأدعو الله للشافعي في صلاتي منذ أربعين سنة، أقول: اللهم اغفر لي، ولوالديّ، ولمحمد ابن إدريس الشافعي، فما كان منهم أتبع لحديث رسول الله ﷺ، منه).

وقد بنى الشافعي أمره كله على الإخلاص، والصدق، وبلغ به الإخلاص حتى يتمنى أن يصل كل علم تعلَّمه إلى الناس حتى وإن لم يُنسب له! وهذه هي طريقة أصحاب الخبايا وعبادة السر، لا يلتفتون إلى ثناء الناس ومدحهم.. ويخبرنا عن نية الإمام الشافعي هذه تلميذه الربيع بن سليمان المرادي، قال: (سمعت الشافعي يقول: ما ناظرت أحدًا قطّ على الغَلَبة؛ وبوُدِّي أنّ جميع الخَلق تعلّموا هذا الكتاب - يعني كتبه - ولا يُنسب إليّ شيء منه).

وبسبب هذه السريرة الصادقة كتب الله القبول لعلم الإمام الشافعي، حتى أصبح من الأئمة أصحاب المذاهب الأربعة. ومن المناسب أن أسوق إليكم هذه القصة التي تشرح أثر الإخلاص في قبول العبد عند الله تعالى، قال أبو بكر بن أبي حامد - صاحب بيت المال بمصر: (كنا في مجلس ابن الفُرَات، وفي المجلس أبو موسى الضرير، وهو شيخ أصحاب الرأي، فقال ابن الفرات: أسألك عن رجلين تُجِيبُنِي عنهما؟ قال: يقول الوزير، فقال: هذا يحيى بن أكثم، ولا يُنكر علمه، ومَحَلُّه من السلطان ما قد علمت، حتى يُدْخله المأمون معه في دُوَّاج نَفْسِه؛ صنَّفَ الكتب، ولا يُنكر علمه وفصاحته ومعرفته؛ لا أرى يجتمع على قوله نفسان! وهذا الشافعي، وَافَى العراق متعلقًا ببركات، وما له عند السلطان محل، وصنّف الكتب، وأرى ذكره كل يوم أعلى، والإجماع على

قوله أكثر؟! قال: فأطرق أبو موسى ساعة، ثم قال: أقول: إن الشافعيَّ أراد الله تعالى بعلمه فرفعه الله، ويحيى بن أكثم لم يرد الله بعلمه، فلم يرفعه الله تعالى)! ومعنى دُوَّاج: أي لحافه. [مناقب الشافعي للبيهقي: ١/ ١٧٣، ١٧٥، ١٧٩، ٢/ ٢٥٤].

الإمام النووي

الإمام .. شيخ الإسلام .. محيي الدين يحيى بن شرف النووي .. صاحب المؤلفات النافعة المباركة .. وقد كتب الله القبول لمصنفاته .. واشتهر منها: شرح صحيح مسلم، والأذكار، ورياض الصالحين، والأربعين النووية، وتهذيب الأسماء واللغات، والمجموع شرح المهذب.

وكان زاهدًا في الدنيا، ومقبلًا على الآخرة .. ويمضي يومه كله في العلم، والتأليف، وبلغ من انشغاله بالعلم؛ أنه كان لا يأكل إلا أكلة واحدة في اليوم والليلة بعد عشاء الأخيرة، ولا يشرب إلا شربة واحدة عند السَّحَر، ولا يشرب المُبَرَّد، ولم يتزوج قط، وكان قليل النوم، كثير السهر في العبادة، والتلاوة، والذكر، والتصنيف، وكان أمّارًا بالمعروف نهّاء عن المنكر، وعندما ولِيَ التدريس في مشيخة دار الحديث الأشرفية لم يأخذ شيئًا من المال، وكان لا يقبل الهدية إلا نادرًا، وكان قوته مما يأتيه من أبيه من نوى: كعك، وفطير .. وقد كان الإمام النووي لا يحب الشهرة إذا جلس في حلقة درسه، وخاصة عندما يدخل عليه الرؤساء والأكابر، فإذا علم أن أحدهم يريد زيارته في يوم درسه؛ لا يدرس العلم ذلك اليوم خوفًا من أن يروه وهو في محل محفله ودرسه، وكان يقول:

(إن من علامات المخلص أنْ يتكدَّر إذا اطَّلع الناس على عمله كما يتكدَّر إذا اطَّلعوا عليه وهو يعصي، فإنّ فرح النفس بذلك معصية، وربما كان الرياء أشد من كثير من المعاصي)! [طبقات الشافعيين: ٩١٢، سلم الوصول إلى طبقات الفحول: ٣/ ٤٠٣، غيث النفع: ٦٥٦].

===❊❊❊===

الصلاة زينة العبد ونوره في الدنيا والآخرة، وأسعد الناس بها أكثرهم سجودًا، وإقبالًا على ربه تعالى، وإخلاصًا له؛ أخْلَصها لمن سجدت له جوارحه. والصالحون يأنسون بالصلاة، ويتلذذون بها، وأسعد ما يكونون بها إذا خلوا بأنفسهم بعيدًا عن أعين الخلق، يناجون، ويستغفرون، فهم في شغل عن الخلق، قال تعالى: ﴿كَانُواْ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيۡلِ مَا يَهۡجَعُونَ ١٧ وَبِٱلۡأَسۡحَارِ هُمۡ يَسۡتَغۡفِرُونَ ١٨﴾ [الذاريات: ١٧، ١٨]، وقال رسول الله ﷺ: **(فضل صلاة الرجل في بيته على صلاته حيث يراه الناس، كفضل المكتوبة على النافلة)**. رواه الطبراني في الكبير والبيهقي في شعب الإيمان، وقال الإمام البيهقي: وهذا في صلاة النفل.

قدوة الأخفياء

وقد كان رسول الله ﷺ يحب الخلوة في جوف الليل؛ راكعًا وساجدًا، وتحكي لنا أم المؤمنين عائشة -رضي الله عنها-، قالت: فقدت رسول الله ﷺ ذات ليلة من الفراش، فظننت أنه ذهب إلى بعض نسائه، فتحسست ثم رجعت فجعلت أطلبه بيدي، فوقعت يدي على بطن قدميه وهما منصوبتان وهو ساجد

في المسجد يقول: (**سبحانك وبحمدك، لا إله إلا أنت، اللهم إني أعوذ برضاك من سخطك، وبمعافاتك من عقوبتك، وأعوذ بك منك، لا أحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك، رب اغفر لي ما أسررت، وما أعلنت**)، فقلت: (بأبي أنت وأمي، إني لفي شأن، وإنك لفي آخر). رواه مسلم وأحمد والنسائي.

وقد اقتفى الصالحون أثر خير الخلق عليه الصلاة والسلام، وكانوا يحرصون على أن يكون سجودهم لربهم وركوعهم له في خفاء، لا يعلمه إلا من أخلصوا له العبادة.

بشَّره بالجنة في حياته!

هذا بلال بن رباح -رضي الله عنه- .. صدق مع الله في السر؛ فجاءته البشارة بالجنة من رسول الله ﷺ .. فما هي قصة هذه البشارة؟!

في ذات يوم وبعد أن صلى رسول الله ﷺ الفجر قال لبلال -رضي الله عنه- : (**يا بلال، حدثني بأرجى عمل عملته عندك منفعة في الإسلام، فإني قد سمعت الليلة دَفَّ نعليْكَ بين يديَّ في الجنة**)؟!

قال بلال: يا رسول الله، ما عملت عملًا في الإسلام أرجى عندي منفعة من أني لا أتطهر طُهُورًا في ساعة من ليل ولا نهار؛ إلا صليت بذلك الطُّهُور ما كتب الله لي أن أصلي.

وفي رواية أخرى قال بلال: ما أذَّنْت قط إلا صليت ركعتين، وما أصابني حدث قط إلا توضأت عندها، ورأيت أن لله عليَّ ركعتين.

فقال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: (**بهما**)! رواه البخاري ومسلم

والترمذي وأحمد.

ومعنى دَف نعليك، الدَّف: الحركة الخفيفة والسير اللَّيِّن.

لا يريد أحداً يسمع مناجاته لله تعالى

وها هو الإمام العابد .. الزاهد .. والقدوة في الورع .. بشر الحافي .. ويحكي لنا حمزة بن دهقان، قال: قلت لبشر بن الحارث: أحب أن أخلو معك، قال: إذا شئت، فيكون يومًا، ولما جاء الميعاد ذهب حمزة إلى بشر، قال حمزة: فرأيته قد دخل قبة، فصلى فيها أربع ركعات لا أحسن أصلي مثلها، فسمعته يقول في سجوده: اللهم إنك تعلم فوق عرشك أن الذل أحبّ إليَّ من الشرف، اللهم إنك تعلم فوق عرشك أن الفقر أحب إليَّ من الغنى، اللهم إنك تعلم فوق عرشك أني لا أوثر على حبك شيئًا. قال حمزة: فلما سمعته، أخذني الشهيق والبكاء، فلما سمع بشر صوت حمزة بن دهقان؛ قال: اللهم أنت تعلم أني لو أعلم أن هذا ها هنا لم أتكلم! [سير أعلام النبلاء: ١٠/ ٤٧٣].

يُخفي صلاته بالليل

قال أيوب بن سليمان بن بلال لعبيد الله بن عمر: أراك تتحرى لقاء العراقيين في الموسم؟! فقال عبيد الله: (والله ما أفرح في سنتي إلا أيام الموسم، ألقى أقوامًا قد نَوَّر الله قلوبهم بالإيمان، فإذا رأيتهم ارتاح قلبي، منهم أيوب). وأيوب الذي عناه هو أيوب السختياني، الذي قال عنه الحسن البصري: (هذا

سيد الفتيان)! ومن غُرَر كلام الإمام أيوب السختياني رحمه الله: (ما صدق عبدٌ قط فأحبَّ الشُهْرة)! وقد كان أيوب السختياني من العاملين بكلامه هذا؛ فكان شديد الخفاء في طاعاته، ولا يحب أن يرى عمله أحد .. وكان رحمه الله يصلي الليل كله، ويخفي ذلك، فإذا كان عند الصبح رفع صوته كأنه قام تلك الساعة! وفي مرة سأل سيار بكرًا بن أيوب السختياني، قال: (يا أبا يحيى، كان أبوك يجهر بالقرآن من الليل؟! قال: نعم، جهرًا شديدًا، وكان يقوم السحر الأعلى)! ويقصد أنه كان يرفع صوته بالقراءة عند الصبح؛ حتى يظن من سمعه أنه قد قام في تلك الساعة. [حلية الأولياء: ٣/ ٧].

يخفي صلاته حتى في السفر!

إنه زاهد البصرة وحكيمها .. ومن تزيَّنت بذكره الكتب: محمد بن واسع رحمه الله، والذي قال عنه جعفر بن سليمان: (كنت إذا وجدت من قلبي قسوة؛ غدوت فنظرت إلى وجه محمد بن واسع، وكنت إذا رأيت وجهه كأنه وجه ثَكْلى)! وكان من الزهَّاد عن حُطام الدنيا، قانعًا بالقليل، وأبى أن يقبل منصب القضاء، فعاتبته امرأته، وقالت: لك عيال، وأنت محتاج! قال: (ما دمت تريني أصبر على الخَل، والبقل، فلا تطمعي في هذا مني)!

وكان محمد بن واسع حكيمًا في كلماته، تجد طريقها إلى قلوب الناس كالأرض العَطْشَى وهي تستقبل المطر، وجاءه رجل يسأله أن يوصيه، فقال له محمد بن واسع: (أوصيك أن تكون ملكًا في الدنيا والآخرة، قال الرجل: كيف

لي بذلك؟! قال: ازهد في الدنيا) !

ومحمد بن واسع واحد من أولئك السلف الذين ارتفعوا بخبيئة الأعمال الصالحة، وكانوا يخفونها عن أعين الناس حتى يصفو لهم أجرها وبركتها .. وفي السفر الذي يجمع الناس في مكان واحد أثناء الطريق حَرِص محمد بن واسع في إخفاء صلاته، ويحكي لنا أبو الطيب موسى بن سيار، قال: (صحبتُ محمد بن واسع من مكة إلى البصرة، فكان يصلي الليل أجمع، يصلي في المَحْمَل جالسًا يومئ برأسه إيماء، وكان يأمر الحادي يكون خلفه فيرفع صوته حتى لا يُفْطن له، وكان ربما عَرَّس من الليل فينزل فيصلي)! [تاريخ دمشق: ٥٦/ ١٥٢، حلية الأولياء: ٢/ ٣٥٠].

يريد الخفاء حتى من الملكين

كان محمد بن أسلم الطوسي رحمه الله آية في التقوى والزهد، ويحكي لنا خادمه، قال: (دخلت على محمد بن أسلم قبل موته بأربعة أيام بنيسابور فقال: يا أبا عبد الله، تعال أبشرك بما صنع الله بأخيك من الخير: قد نزل بي الموت، وقد مَنَّ الله عليَّ أنه ليس عندي درهم يحاسبني الله عليه، وقد علم الله ضعفي، وأني لا أطيق الحساب، فلم يدع عندي شيئًا يحاسبني عليه، ثم قال: أغلق الباب ولا تأذن لأحد عليَّ حتى أموت، واعلم أني أخرج من الدنيا وليس أدع ميراثًا غير كسائي، ولِبْدي، وإنائي الذي أتوضأ فيه، وكتبي هذه، فلا تكلف الناس مُؤْنةً، وكانت معه صُرَّة فيها ثلاثون درهمًا، فقال: هذا لابني أهداه له

قريب له، ولا أعلم شيئًا أحل لي منه لأن النبي ﷺ قال: (**أنت ومالك لأبيك**)، وقال: (**أطيب ما أكل الرجل من كسبه، وولده من كسبه**)، فكفنوني منها، فإن أصبتم بعشرة دراهم ما يستر عورتي فلا تشتروا بخمسة عشر، وابسطوا على جنازتي لِبْدي وغَطُّوا على جنازتي كِسَايَ، وتصدقوا بإنائي، أعطوه مسكينًا يتوضأ منه، ثم مات اليوم الرابع)! هذا الإمام رحمه الله كان يقول: (لو قدرت أن أتطوع حيث لا يراني ملكاي لفعلت، خوفًا من الرياء)! ويحكي لنا محمد بن القاسم: أن محمد بن أسلم كان يدخل بيتًا له ويغلق بابه، ولم أدر ما يصنع، حتى سمعتُ ابنًا له صغيرًا يحكي بكاءه، فنهته أمه، فقلت لها: ما هذا؟! قالت: إن أبا الحسن يدخل هذا البيت فيقرأ ويبكي، فيسمعه الصبي فيحكيه، وكان إذا أراد أن يخرج غسل وجهه، واكتحل فلا يُرى عليه أثر البكاء! [سير السلف الصالحين، صفحة: ١١٧٤ - ١١٧٥].

لم أر رجلًا أسرَّ بالخير منه

إنه الإمام عبد الله بن المبارك رحمه الله، جمع بين العلم .. والتقوى.. والزهد .. والورع .. قال سويد بن سعيد: (رأيت عبد الله بن المبارك بمكة أتى زمزم فاستقى منه شربةً، ثم استقبل الكعبة، ثم قال: اللهم إن ابن أبي الموال حدثنا عن محمد بن المنكدر عن جابر عن النبي ﷺ أنه قال: (**ماء زمزم لما شُرِب له**)، وهذا أشربه لعطش القيامة، ثم شربه). وكان ابن المبارك من أهل الخفاء، حتى قال فيه الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله: (ما رفع الله ابن المبارك إلا بخبيئةٍ كانت

له)! ويحكي لنا محمد بن أعين، وكان صاحب ابن المبارك في الأسفار، وكان كريمًا عليه، قال: (كان ذات ليلة ونحن في غزاة الروم ذهب ليضع رأسه ليريني أنه ينام، فقلت أنا برمحي في يدي قبضت عليه، ووضعت رأسي على الرمح كأني أنام كذلك، قال: فظن إني قد نمت فقام فأخذ في صلاته، فلم يزل كذلك حتى طلع الفجر وأنا أرمقه، فلما طلع الفجر جاء فأيقظني وظن إني نائم، وقال: يا محمد، فقلت: إني لم أنم، قال: فلما سمعها مني ما رأيته بعد ذلك يكلمني ولا ينبسط إليَّ في شيء من غزاته كلها، كأنه لم يعجبه ذاك مني لما فطنت له من العمل، فلم أزل أعرفها فيه حتى مات، ولم أر رجلًا قط أسر بالخير منه). [الجرح والتعديل: ١/ ٢٦٦-٢٦٧].

يصلي بعد أن تنام امرأته

الزاهد .. العابد .. حسان بن أبي سنان رحمه الله .. وكان يقول: (ما رأيت أهون من الورع، دع ما يريبك إلى ما لا يريبك)، وكان يعمل بالتجارة ويتصدق على الفقراء، والمساكين، ويقول: (لولا المساكين ما اتَّجَرْت)، وأعطى ذات مرة امرأة سائلة مائتي درهم، فقيل له: كانت ترضى بدون هذا، قال: (رأيت بها بَقِيَّة من شباب، فخشيت أن تدعوها الضرورة إلى ما يُكْرَه). وكان رحمه الله كثير العبادة، وممن يخفي عبادته عن الناس، وتحكي لنا امرأته كيف كان يخفي صلاته عنها، قالت: (كان يدخل معي في فراشي يخادعني كما تخادع المرأة صبيها، فإذا علم أني نمت سَلَّ نفسه فخرج، ثم يقوم يصلي، فقلت: ارفق

بنفسك، كم تعذبها، قال: اسكتي ويحك! فيوشك أن أرقد رقدة لا أقوم منها بَعْدُ زمانًا)! وكان حسان يفتح باب حانوته فيضع الدواة، والدفتر، ويرخي ستره ويصلي، فإذا أحس بإنسان قد جاء يُقْبِل على حسابه، يُوهِم أنه كان في الحساب! [تاريخ الإسلام: ٣/ ٣٩٥، سير السلف الصالحين: ٧٤٥].

===❊❊❊===

الصوم له شرفه العظيم لأن الله جعل له خصوصية في العبادات لم يجعلها لغيره؛ فهو عبادة تقوم على الخفاء، ولذلك جعل الله له ثوابًا مخفيًّا عن الناس لا يعلم مقداره إلا هو سبحانه وتعالى، وفي هذا قال رسول الله ﷺ: (**إن الله عز وجل يقول: إن الصوم لي وأنا أجزي به...**) رواه مسلم.

وقد أبى الصالحون إلا أن يكون صومهم لله تعالى، لا يطَّلع عليه غيره تبارك وتعالى، وأخبارهم في هذا تشهد على ما كانوا عليه من إخلاص العبادة لله عز وجل، وعن عيسى ابن مريم عليه الصلاة والسلام: (إذا تصدق أحدكم فليعط بيمينه وليُخْفِ من شماله، وإذا كان يوم صوم أحدكم فَلْيَدَّهِنْ أو ليمسح شفتيه من دهنه، حتى ينظر إليه الناظر فلا يرى أنه صائم، وإذا صلى أحدكم في بيته فَلْيُخْفِ عليه ستره؛ فإن الله يقسم الثناء كما يقسم الرزق). [الزهد لهَنَّاد بن السَّري: ٢/ ٤٤٤].

صام أربعين سنةً ولا يعلم به أحد

قال عنه حماد بن زيد: (ما رأيت أحدًا أفقه من داود)! .. هو داود بن أبي هند .. عالم أهل البصرة .. وعابدها الزاهد .. نشأ على طاعة الله وذكره منذ أن كان صغيرًا، ويحكي عنه ابن أبي عدي، قال: (أقبل علينا داود بن أبي هند فقال: يا

فتيان، أخبركم لعل بعضكم أن ينتفع به، كنت وأنا غلام اختلف إلى السوق، فإذا انقلبت إلى البيت جعلت على نفسي أن أذكر الله إلى مكان كذا وكذا، فإذا بلغت ذلك المكان جعلت على نفسي أن أذكر الله إلى مكان كذا وكذا، حتى آتي المنزل). وكان داود رحمه الله لا يحب أن يعرف أحد خبيئة طاعته بينه وبين الله عز وجل .. بلغ شدة حرصه على إخفاء عبادته؛ أنه صام أربعين سنة ولم يعلم أحد بصيامه، وكان يعمل خزازًا، فيخرج من بيته ومعه غداؤه، وفي الطريق يتصدق به، وإذا كان العشاء رجع إلى أهله فيفطر معهم! وظل هكذا أربعين سنة! وقال ابن الجوزي :فيظن أهل السوق أنه قد أكل في البيت، ويظن أهله أنه قد أكل في السوق! [تاريخ دمشق: ١٧/ ١٢٩، صفة الصفوة: ٣/ ٣٠٠].

يصوم وأهله لا يدرون!

قصة صيامه كقصة صيام داود بن أبي هند .. إنه عمر بن قيس الملائي، وكان سفيان الثوري إذا ذكره قال: (حسبك به شيخًا)! وقال الثوري أيضًا: (عمرو بن قيس هو الذي أدَّبني، علمني قراءة القرآن، وعلمني الفرائض، وكنت أطلبه في سوقه فإن لم أجده في سوقه وجدته في بيته إما يصلي، وإما يقرأ في المصحف، كأنه يبادر أمورًا تفوته، فإن لم أجده في بيته وجدته في بعض مساجد الكوفة في زاوية من زوايا المسجد، كأنه سارق قاعدًا يبكي، فإن لم أجده وجدته في المقبرة قاعدًا ينوح على نفسه)! ومن كان هذا حاله في الخلوة بربه عز وجل؛ لن يجد اللذة إلا في إخفاء الصالحات عن العباد .. وقد ظل عمرو بن قيس

الملائي عشرين سنة صائمًا، ما يعلم به أهله؛ يأخذ غداءه ويغدو إلى الحانوت فيتصدق بغدائه ويصوم، وأهله لا يدرون!

وفي مجلسه كان يخفي دموعه كما يخفي صيامه.. فإذا حضرته الرِّقة؛ يحول وجهه إلى الحائط ويقول لجلسائه: هذا الزكام! [صفة الصفوة: ٢/ ٧٢، تاريخ بغداد: ١٤/ ٦٠، تهذيب التهذيب: ٨/ ٩٣].

مَن رعاني أكلت

هكذا قال زينة العُبَّاد معروف الكرخي رحمه الله، وقد ألح عليه أحدهم أن يخبره عن صيامه! وقال عنه عبد الوهاب الوراق: (ما رأيت أحدًا أخوف لله عزَّ وجلَّ من معروف الكرخي)! وسأل عبد الله بن أحمد بن حنبل أباه: هل كان مع معروف الكرخي شيء من العلم؟ فقال: (يا بني، كان معه رأس العلم، خشية الله تعالى)!

وأما مواعظ معروف الكرخي فهي تخرج من نور الحكمة الذي استنارت به بصيرته، وهو القائل: (إذا أراد اللَّه بعبد خيرًا فتح له باب العمل، وأغلق عنه باب الجدل، وإذا أراد بعبد شرًا فتح له باب الجدل، وأغلق عنه باب العمل)!

إنه رجل أصلح آخرته، وخرج من الدنيا كما دخل إليها، وقيل له في مرض موته: أوْصِ، فقال: (إذا مت فتصدقوا بقميصي، فإني أريد أن أخرج من الدينا عريانًا كما دخلتها عريانًا)!

وقد صدق في العبادة آخذًا بأعلى درجاتها، فكان إذا صام لا يعلم بصيامه أحد.. وما أخبر بخبيئته هذه إلا في مرض موته، كما أخبر به أخوه عيسى، قال:

(دخل رجل على معروف في مرضه الذي مات فيه، فقال: يا أبا محفوظ، أخبرني عن صومك؟ قال: كان عيسى ﷺ يصوم كذا، قال: أخبرني عن صومك؟ قال: كان داود يصوم كذا، قال: أخبرني عن صومك؟ قال: كان النبي ﷺ يصوم كذا، قال: أخبرني عن صومك؟! قال: أما أنا فكنت أصبح دهري كله صائمًا، فإن دُعِيت إلى طعام أكلت، ولم أقل إني صائم)! [تاريخ بغداد: ١٣/ ٢٠٢، طبقات الحنابلة: ١/ ٣٨٣، وفيات الأعيان: ٥/ ٢٣٢].

===❊❊❊===

وأما الصدقة .. فهي التجارة الرابحة بين الله وبين عباده، وأسعد الناس بها أولئك الذين عقدوا صفقاتها سرًا بينهم وبين من بذلوا له مالهم، قال تعالى: ﴿إِن تُبْدُواْ ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِيَ ۖ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ﴾ [سورة البقرة: ٢٧١]، وقال رسول الله ﷺ: **(صدقة السر تطفئ غضب الرب)**. رواه الطبراني في الأوسط والصغير.

- والذي يتصدق سرًا سيكون يوم القيامة فيمن يظله الله يوم لا ظل إلا ظله، نعم سيكون من أولئك السبعة الذين قال فيهم رسول الله ﷺ: **(سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله ..)**، وذكر من هؤلاء السبعة: **(ورجل تصدق بصدقة فأخفاها؛ حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه)**. رواه البخاري ومسلم.

ينفق على مائة بيت ولا يعرفونه

زين العابدين علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب -رضي الله عنهم-، سيد آل البيت في زمانه، وساد بالدين، والتقوى، كان إذا توضأ يصفرّ لونه؛ فيقول له أهله: ما هذا الذي يعتادك عند الوضوء؟! فيقول: (تدرون بين يدي من أريد أن أقوم)؟! وكذلك إذا قام إلى الصلاة أخذته رعدة، فقيل له: مالك؟! فقال: (ما

تدرون بين يدي مَن أقوم، ومن أناجي)؟! ووقع ذات مرة حريق في بيته وهو ساجد، فجعلوا يقولون له: يا ابن رسول الله النار، يا ابن رسول الله النار! فما رفع رأسه حتى أُطفئت، فقيل له: ما الذي ألهاك عنها؟! قال: (ألهتني عنها النار الأخرى)! وعلي بن الحسين هذا كان يخفي صدقته على فقراء أهل المدينة، فيحمل جراب الخبز على ظهره بالليل فيتصدّق به، ويقول: (إن صدقة السر تطفئ غضب الرب عز وجل)! وكان ناس من أهل المدينة يعيشون لا يدرون من أين كان معاشهم، فلما مات علي بن الحسين؛ فقدوا ما كانوا يؤتون به في الليل! وكان بعضهم يظن البخل بعلي بن الحسين، ولكن بعد موته وجدوه يعول مائة أهل بيت بالمدينة! ولما مات -رضي الله عنه- فغسلوه جعلوا ينظرون إلى آثار سوداء بظهره، فقالوا: ما هذا؟! فقيل: كان يحمل جُرُب الدقيق ليلًا على ظهره يعطيه فقراء أهل المدينة! [حلية الأولياء: ٣/ ١٣٥، صفة الصفوة: ١/ ٣٥٤].

لا يدري من قضى دَيْنه!

لما جاء خبر موت عبد الله بن المبارك إلى سفيان بن عيينة؛ قال: (رحمه الله، لقد كان فقيهًا، عالمًا، عابدًا، زاهدًا، سخيًّا، شجاعًا، شاعرًا)! هذه الصفات التي ذكرها سفيان بن عيينة في عبد الله بن المبارك لنا وقفة مع صفة واحدة، وهي السخاء .. كان عبد اللَّه بن المبارك كثير السفر إلى طرسوس، وكان ينزل الرَّقة في خان، فكان شاب يختلف إليه ويقوم بحوائجه، ويسمع منه الحديث، فقدم عبد الله الرقة مرة فلم ير ذلك الشاب، وكان مستعجلًا فخرج في النفير، فلما قفل من

غزوته ورجع الرقة سأل عن الشاب، فقالوا: إنه محبوس لدَيْن ركبه، فقال عبد الله: وكم مبلغ دَيْنه؟ فقالوا: عشرة آلاف درهم. فلم يزل يستقصي حتى دُلَّ على صاحب المال، فدعا به ليلًا ووزن له عشرة آلاف درهم، وحلَّفه أن لا يخبر أحدًا ما دام عبد الله حيًّا، وقال: إذا أصبحت فأخرج الرجل من الحبس. وأدلج عبد الله، فأُخرج الفتى من الحبس، وقيل له: عبد الله بن المبارك كان هاهنا، وكان يذكرك، وقد خرج. فخرج الفتى في أثره فلحقه على مرحلتين- أو ثلاث- من الرقة، فقال: يا فتى، أين كنت، لم أرك في الخان؟ قال: نعم يا أبا عبد الرحمن، كنت محبوسًا بدَيْن، قال: فكيف كان سبب خلاصك؟ قال: جاء رجل فقضى ديني ولم أعلم به حتى أخرجت من الحبس، فقال له عبد الله: يا فتى، احمد اللَّه على ما وفق لك من قضاء دينك. فلم يخبر ذلك الرجل أحدًا إلا بعد موت عبد الله بن المبارك، رحمه الله. [تاريخ بغداد: ١٠/ ١٥٨].

قصة واقعية: لا يدري من قضى دَيْنه!

أخبرني الدكتور عيسى المسملي عن قصة رجل كان يوقف بعض المبالغ لبعض الناس، كلما جمع من راتبه شيئًا ذهب به أوقفه عند شخص، ويقول له: هذا المبلغ لكشف الكربات، ثم يذهب إلى آخر ويوقف عنده كذلك مبلغًا آخر، فما عرف الناس هذا السر إلا بعد موته، فاجتمع الناس بعد موته فقال أحدهم: عندي وقف له، وقال ثان: أنا أيضًا عندي وقف له، وكذلك ثالث، ورابع .. وهكذا كان يوقف هذه الأموال في الخفاء لا يعلمها إلا الله.

قصة واقعية - امرأة بدوية تخفي صدقتها

ليس الرجال وحدهم هم أهل معالي الأمور في صدقة السر، بل إن للنساء نصيب في هذا العمل العظيم.. وهذه هي إحدى القصص الواقعية التي تحكي لنا قصة إحدى أولئك النساء صاحبات الهمة العالية في صدقة الخفاء..

وأنا أروي لكم هذه القصة عن شاهد عيان عاش أحداثها، وعرف تفاصيلها، وهو الشيخ مطلق العصيمي وفقه الله ..

إنها قصة امرأة صالحة ألهمها الله أرفع درجات العمل في الصدقة، وهي صدقة السر .. فكانت هذه المرأة المحسنة الصالحة تخرج من بيتها تحت ستار الليل الذي يستر كل شيء، وتذهب إلى بيوت المحتاجين، وإذا وصلت إلى الخيمة جاءت من خلف الخيمة حيث يُوجد النساء في الغالب، فإذا وجدت مَن تقصدها من النساء أعطتها صدقتها ثم انصرفت، وإذا سمعت صوت رجل اعتذرت بحياء وقالت: ضاع لنا غنم ونحن نبحث عنه.

وهكذا مضت هذه المرأة المحسنة في إخفاء صدقتها عن الخلق لا يعلمها إلا الخالق تعالى، وهو المجازي المحسن بقدر إحسانه ..

قصة واقعية: يقضي ديونهم ولا يدرون مَن قضاها!

وهذه قصة أخرى من القصص الواقعية تشهد أن الناس لا يزالون بخير، وأن فيهم رجال ونساء تجارتهم مع الله تعالى، وهي صفقات خبايا الأعمال الصالحة التي لا يعلم مقدار ثوابها إلا مَن تعاقدوا معه فيها، عز وجل ..

وهذه القصة رواها لي أخ عزيز ثقة، وهو الشيخ أحمد الضبعان، وفقه الله إلى كل خير.. وقد تحقق من تفاصيلها بنفسه حتى جاء بالخبر اليقين. يقول الشيخ أحمد الضبعان حفظه الله: وقد تحققت من هذه القصة من ابنه عبد الكريم أحمد بانه، أحد الدعاة في المنطقة وإمام مسجد ..

فهذه قصة رجل اسمه أحمد بانه، كان من أوائل مَن فتح مطاعم في أبها في الثمانينات، وهو فيما يرى الناس أنه مسرف على نفسه، ما يُرَى عليه ذلك التدين الذي يُوصل فيما يرى الناس إلى تلك الخاتمة التي أحسن الله خاتمته بها.. وتبدأ القصة معنا: عندما ذهب أحمد بانه لصلاة الجمعة بدأ في صلاة ركعات قبل طلوع الإمام المنبر، فكانت هذه الركعات هي آخر عمل أحمد بانه في الدنيا؛ حيث قُبضت روحه وهو ساجد ..

قال الشيخ أحمد الضبعان: فحرَّكت هذه القصة في نفسي الرغبة الشديدة إلى معرفة سر هذه الخاتمة الحسنة! فقلت: يا جماعة، مَن يعرف لي جار أحمد بانه قالوا: الشيخ سعيد بن عبشان العسيري، فذهبت إليه، وقلت: يا شيخ سعيد، أنا أسالك عن الرجل هذا إيش تعرف عنه؟! مستحيل أن يكرمه الله بهذه الخاتمة إلا وله سر مع الله عز وجل! قال: يا أبا عاصم، من يوم عرفت أحمد بانه كان يذهب إلى المحكمة، ويجلس وينتظر حتى يأتي المَدِين، وبعد ثبات الحق عليه والخصم موجود، فيتركه حتى يخرج فإذا خرج نادى على صاحب الدَّين، وقال: يا فلان، كم تضع من دَينه وأعطيك الآن؟ فبعضهم يضع من الدَّين، وبعضهم يصر على المبلغ بكامله، فيدفعه كاملًا، ويقضي دَينه، والمَدين

لا يعلم مَن قضى دينه! فلمَّا علمت هذا عرفت أنها هي الخبيئة التي بينه وبين الله عز وجل .. وقد توفي الشيخ سعيد عبشان الذي أخبرني بهذه الخبيئة، فالله يغفر لهم ويرحمهم ويسكنهم جنات النعيم.

===❊❊❊===

الحج هو ركن من أركان الإسلام الخمسة، والحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة، كما أخبر عليه الصلاة والسلام، وقيل: الحج المبرور هو ما سَلِم من الإثم والرياء، وينبغي على الحاج أن يكون حجه خالصًا لله، حتى يكون مبرورًا، قال تعالى: ﴿وَأَتِمُّواْ ٱلۡحَجَّ وَٱلۡعُمۡرَةَ لِلَّهِۚ﴾ [سورة البقرة: ١٩٦]، ولذلك ينبغي على الحاج أن يراعي الشروط والآداب التي تجعل الحج بعيدًا عن الرياء والسُّمعة، وأن لا يشغل نفسه بما يؤثر على إخلاص نيته؛ مثل التصوير، وما شابه ذلك من الأقوال والأفعال. ولنا صور صادقة من سيرة السلف في إخلاص النية في حجهم، والحرص على عدم الشهرة.

وفي هذا أسوق لكم قصة التابعي أويس القرني رحمه الله، والذي قال فيه رسول الله ﷺ: (**إن خير التابعين رجل يقال له: أويس بن عامر**..). وكان أويس هذا من أبر الناس بأمه، وبسبب هذا لم يهاجر إلى النبي ﷺ .. وكان كثير العبادة، زاهدًا، ولا يظهر للناس عبادته وصلاحه، ولشدة خفائه عن الناس كانوا لا يعرفون قدره، فكان الصبيان إذا رأوه يرمونه بالحجارة، فيقول لهم: (إن كان لابد فارموني بالصغار، كيلا تدقوا ساقي فتمنعوني عن الصلاة)! ويحكي لنا

أُسَير بن جابر قصة مجيئه إلى المدينة في أيام الحج، وكيف عرفه أمير المؤمنين عمر بن الخطاب -رضي الله عنه-، قال أُسَيْر بن جابر: (كان عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- إذا أتى عليه أمداد أهل اليمن سألهم: أفيكم أويس بن عامر؟ حتى أتى على أويس، فقال: أنت أويس بن عامر؟ فقال: نعم، قال: من مُراد، ثم من قَرَن؟ قال: نعم، قال: فكان بك برص فبَرَأْتَ منه إلا موضع درهم؟ قال: نعم، قال: لك والدة؟ قال: نعم، فقال له عمر: استغفر لي، فقال: أنت أحق أن تستغفر لي، أنت صاحب رسول الله ﷺ، فقال عمر: إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: (**إن خير التابعين رجل يقال له: أويس بن عامر، يأتي عليكم مع أمداد أهل اليمن، من مراد ثم من قَرَن، كان به برص، فبرأ منه إلا موضع درهم في سُرَّته، له والدة هو بها بَرٌّ، لو أقسم على الله لأبره، فإن استطعت أن يستغفر لك فافعل**)، فاستغفر لي، فاستغفر له، فقال له عمر: أين تريد؟ قال: الكوفة، قال: ألا أكتب لك إلى عاملها؟ قال: أكون في غَبْراء الناس أحبّ إليَّ، قال: فقدم الكوفة، وكنا نجتمع في حلقة فنذكر الله ، وكان يجلس معنا، فكان إذا ذكر هو وقع حديثه من قلوبنا موقعًا لا يقع حديث غيره، فلما كان من العام المقبل حج رجل من أشرافهم، فوافق عمر، فسأله عن أويس، فقال: تركته رث البيت، قليل المتاع، فقال له عمر: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (**يأتي عليكم أويس بن عامر مع أمداد أهل اليمن، من مراد، ثم من قَرَن، كان به برص، فبرأ منه إلا موضع درهم، له والدة هو بها بَر، لو أقسم على الله لأبره، فإن استطعت أن**

يستغفر لك فافعل)، فأتى أويسًا فقال: استغفر لي، فقال: أنت أحْدَث عهدًا بسفر صالح، فاستغفر لي، ثم قال: لقيت عمر؟ قال: نعم، فاستغفر له، ففطن له الناس، فانطلق على وجهه، قال أُسَيْر: وكسوته بُرْدةً، فكان كلما رآه إنسان قال: من أين لأويس هذه البُرْدة؟! رواه مسلم وأحمد.

===❊❊❊===

القرآن هو الزينة العظمى .. والشرف الأكبر .. وأشرف كتاب قرأه القارئ هو القرآن! وكيف لا يكون عظيمًا وهو كلام العظيم رب العالمين عز وجل؟! ولشرف قراءته فإن الله تعالى قال لنبيه عليه الصلاة والسلام: ﴿وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا﴾ [سورة المزمل: ٤]. وعن أبي ذر -رضي الله عنه-، قال: قلت: يا رسول الله، أوصني، قال: (**عليك بتقوى الله؛ فإنه رأس الأمر كلّه**)، قلت: يا رسول الله زدني، قال: (**عليك بتلاوة القرآن؛ فإنه نور لك في الأرض، وذخر لك في السماء**). رواه ابن حبان في صحيحه.

وأعظم الناس درجة، وشرفًا، وفضلًا في قراءة القرآن هم أهل الخفاء، وقد شهد لهم بهذا رسول الله ﷺ في قوله: (**الجاهرُ بالقرآن كالجاهر بالصدقة، والمُسِرُّ بالقرآن كالمُسِرّ بالصدقة**). رواه أبو داود والترمذي والنسائي. وقال الإمام الترمذي في معنى هذا الحديث: (ومعنى هذا الحديث أن الذي يسر بقراءة القرآن أفضل من الذي يجهر بقراءة القرآن، لأن صدقة السر أفضل عند أهل العلم من صدقة العلانية، وإنما معنى هذا عند أهل العلم لكي يأمن الرجل من العُجْب، لأن الذي يسر العمل لا يُخاف عليه العُجْب ما يُخاف عليه من علانيته). [سنن الترمذي: ٥/ ١٨٠].

وفي مثل هذا يقول الحسن البصري: (إن كان الرجل لقد جمع القرآن وما يشعر به جاره)!

يستر الصحف بثوبه

كان ابن مسعود -رضي الله عنه- إذا رأى تلميذه الربيع بن خثيم؛ يقول: (يا أبا يزيد، لو أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- رآك لأحبك، وما رأيتك إلا ذكرتُ المخبتين)!

ولقد ارتفع الربيع بن خثيم رحمه الله بالورع، والصدق مع الله تعالى، وهذا إبراهيم التيمي يقول: (أخبرني من صحب الربيع بن خثيم عشرين عامًا ما سمع منه كلمة تُعاب)! ولمَّا أُصيب الربيع بن خثيم بمرض الفالج؛ كان يعتمد على الرجلين حتى يأتي المسجد، فقيل له: يا أبا يزيد، لقد رخص الله لك، لو صليت في بيتك؟ فيقول: إنه كما تقولون، ولكني سمعته ينادي: حي على الفلاح، فمن سمع منكم ينادي: حيّ على الفلاح؛ فليجبه ولو زحفًا ولو حبوًا!

وقد كان هذا التابعي الصالح حريصًا على طاعاته لله أن تكون خالصةً، لا يكدرها شيء من غبش الرياء، فكان إذا خلا بنفسه اطمأن في عبادته، فيجهر بالقراءة؛ فإذا سمع وقْع أقدام؛ خَفَتَ صوته، فكان عمله كله سرًا، فإذا دخل عليه الرجل وقد نشر المصحف؛ غَطَّاه بثوبه! طالبًا ما عند الله، وليس ثناء الناس .. [طبقات ابن سعد: ٦/ ٢١٩، بغية الطلب في تاريخ حلب: ٨/ ٣٥٧١].

الإمام أحمد بن حنبل وختم القرآن

إنه إمام أهل السنة والجماعة! مناقبه مشهورة .. وقال فيه الإمام الشافعي: (خرجت من بغداد وما خلفت بها أحدا أتقى، ولا أورع، ولا أفقه، قال الراوي: أظنه قال: ولا أعلم، من أحمد بن حنبل)! وقال الحارث بن العباس: (قلت لأبي مسهر: تعرف أحدًا يحفظ على هذه الأمة أمر دينها؟ قال لا أعلمه إلا شاب في ناحية المشرق - يعني أحمد بن حنبل).

وإذا ذُكر العلم فأحمد بن حنبل إمام فيه، وقد شهد له بالعلم كبار الأئمة، كما رأينا في شهادة الإمام الشافعي، وهذا هو الإمام أبو ثور، فقد روى المروذي، قال: (حضرت أبا ثور وقد سئل عن مسألة، فقال: قال أبو عبد الله أحمد بن حنبل شيخنا وإمامنا فيها كذا وكذا)!

وأما العبادة؛ فقد كان هذا الإمام رحمه الله أعجوبة العُبَّاد، لا يفتر عن الصلاة، والصيام .. وقد أخذ نصيبًا عظيمًا من عبادة السر، وكان يبغض الشهرة .. ويخبرنا تلميذه المروذي بقصته مع ختم القرآن أيام كان في معسكر الخليفة المتوكل، بعد فتنة خلق القرآن، قال المروذي: (كنت مع أبي عبد الله نحوًا من أربعة أشهر بالعسكر، وكان لا يدع قيام الليل، وقراءة النهار، فما علمت بختمة ختمها، وكان يُسِرّ ذلك). [الجرح والتعديل: ٢/ ٦٨، تاريخ بغداد: ٦/ ٩٠، الآداب الشرعية: ٢/ ٢٨٢].

===❋❋❋===

٨
الأخفياء والجهاد في سبيل الله

يكفي في شرف المجاهد في سبيل الله أن الله رزقه الحياة بعد الموت، والتلذذ بنعيم الجنة؛ لأنه قد بذل نفسه في سبيل الله فعوَّضه الله حياة أخرى، قال تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًاۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾﴾ [سورة آل عمران: ١٦٩]. وإذا كان هذا هو جزاء من يُقتل في سبيل الله فإن الأخفياء حرصوا مع هذه المنزلة على إخفاء أعمالهم حتى يكون جهادهم خالصًا لله لا يريدون به ثناء ولا أجرًا من أحد..

وأنت يا أبا عمرو ممن يُشَّع علينا؟!

إنه عبد الله بن المبارك .. العالم .. الزاهد .. المجاهد .. وكما أن له سهم عظيم في العلم، كذلك كان له سهم عظيم في الجهاد في سبيل الله! ولم يكن ابن المبارك ممن يطلب بجهاده ثناء الناس، بل كان من عادته يضع اللثام على وجهه عند القتال لئلا يُعرف! وهذا عبدة بن سليمان المروزي، يخبرنا عن إحدى الغزوات التي شهدها مع ابن المبارك، قال: كنا سرية مع ابن المبارك في بلاد الروم، فصادفنا العدو، فلما التقى الصفان، خرج رجل من العدو فدعا إلى البراز، فخرج إليه رجل فقتله، ثم آخر فقتله، ثم آخر فقتله، ثم دعا إلى البراز، فخرج إليه رجل فطارده ساعة، فطعنه، فقتله، فازدحم إليه الناس، فنظرت فإذا هو عبد الله بن المبارك، وإذا هو يكتم

وجهه بكمه، فأخذت بطرف كمه، فمددته، فإذا هو هو، فقال: وأنت يا أبا عمرو ممن يُشَنِّع علينا؟! [سير أعلام النبلاء: ٧/ ٣٧٤].

اللهم اجعلني مع صاحب النَّقْب

وهذه قصة رجل أخفى جهاده في موضع لا يُخفي العمل فيه إلا مخلص! بل هو موضع يحب أهل الرياء أن يثني الناس عليهم بالشجاعة والإقدام .. ولكن يا تُرى ما هي قصة هذا الدعاء: (اللهم اجعلني مع صاحب النَّقْب)؟! ومن هو الداعي بهذا الدعاء؟ ومن هو صاحب النَّقْب؟ فإلى قصتنا لنقف على جواب هذه الأسئلة.

كان مسلمة بن عبد الملك بن مروان كثير الغزو لبلاد الروم، وفي إحدى هذه الغزوات حاصر حصنًا، وكان الناس في شدة، فندب الناس إلى نَقْب في حصن العدو، ليدخل منه أحد الجند ليفتح للمسلمين باب الحصن، فلم يجِبه أحد، ثم جاء رجل من عرض الجيش فدخله، ففتحه الله عليهم، فنادى مسلمة: أين صاحب النَّقْب؟ فما جاءه أحد، فنادى: إني قد أمرت الآذن بإدخاله ساعة يأتي، فعزمت عليه إلّا جاء. فجاء رجل فقال: استأذن لي على الأمير، فقال له: أنت صاحب النَّقْب؟ قال: أنا أخبركم عنه. فأتى مسلمة فأخبره عنه، فأذن له، فقال له: إن صاحب النَّقْب يأخذ عليكم ثلاثًا: ألّا تسوّدوا اسمه في صحيفة إلى الخليفة، ولا تأمروا له بشيء، ولا تسألوه ممن هو؟! قال: فذاك له، قال: أنا هو. فكان مسلمة بعدها لا يصلي صلاة إلا قال: اللهم اجعلني مع صاحب النَّقْب. [عيون الأخبار: ١/ ٢٦٦].

===❋❋❋===

يكفي في شرف المساجد أن الله تعالى نسبها إلى نفسه، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَعۡمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمۡ يَخۡشَ إِلَّا ٱللَّهَۖ فَعَسَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ أَن يَكُونُواْ مِنَ ٱلۡمُهۡتَدِينَ ١٨﴾ [سورة التوبة: ١٨]. وسماها النبي ﷺ بيوت الله، فقال: (**ما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله، يتلون كتاب الله، ويتدارسونه بينهم، إلا نزلت عليهم السكينة، وغَشِيتهم الرحمة، وحَفَّتهم الملائكة، وذكرهم الله فيمن عنده**). رواه مسلم.

وأهل المساجد الذين تعلقت قلوبهم بها تنالهم بركاتها في الدنيا والآخرة، أما في الدنيا فينالون بالصلاة فيها وشهود حلقات الذكر والعلم، و نزول الملائكة عليهم بالرحمة، وذكر الله تعالى لهم في الملأ الأعلى، وأما يوم القيامة؛ فسيظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله، فقد ذكر رسول الله ﷺ في السبعة الذين يظلهم الله يوم لا ظل إلا ظله: (**ورجل قلبه معلق بالمسجد**). متفق عليه، وقال عليه الصلاة والسلام: (**ما تَوطّن رجل المساجد للصلاة والذكر، إلا تبشبش الله تعالى إليه، كما يتبشبش أهل الغائب بغائبهم إذا قدم عليهم**). رواه ابن ماجه وابن خزيمة في صحيحه. ومعنى تبشبش: أقبل عليه وفرح بقدومه.

ولكن أهل الخفاء الذين تعلقت قلوبهم بالمساجد؛ صدقوا النية في عمارتها، وطلبوا ما عند الله تعالى.

سأل عنها النبي ﷺ

هذه قصة امرأة اختارت لنفسها أشرف خدمة وفي أشرف بيت، وفي أشرف مسجد على الأرض بعد المسجد الحرام .. وهو مسجد رسول الله ﷺ .. ووصفها لنا راوي قصتها أنها كانت امرأة سوداء، وكانت تَقُم المسجد، فتنظفه من القمامة، وما يسقط فيه من العيدان وغيرها، وافتقدها رسول الله ﷺ ذات مرة عندما لم يَرَها، فسأل عنها، فقالوا: ماتت، فقال: أفلا كنتم آذَنْتُمُونِي؟! فقالوا: يا رسول الله، مات ظهرًا وأنت صائم قائل، فكرهنا أن نوقظك بها. كأنهم استصغروا أمرها. فقال: دُلُّونِي على قبرها. فدلُّوهُ، فأتى قبرها فصلى عليها، فَصَفَفْنَا خلفه، وكبَّر عليها أربعًا. رواه البخاري ومسلم والنسائي وأحمد.

قصة واقعية: عرفنا السر بعد موته!

زارني قبل تسع سنوات إمام مسجد الأمير أحمد بتربة، وهو إمام له منذ عام: ١٣٦٠ هـ، فذكر لي قصة عجيبة، قال: كنا نتعجب من حال مسجدنا، عندما كنا نجده في يوم الجمعة وقد نُظِّف ورُتِّبت فرشه، وطُيِّب، فنسأل أنفسنا: يا تُرى مَن هذا الذي يقوم بهذا العمل؟! وبعد فترة مرض جار للمسجد، وهو رجل من الأشراف، صاحب وجاهة، وديانة، وهو محبوب للناس يحبه الجميع ،

فعدناه في مرضه، فإذا به في سكرات الموت، فرفع بصره وهو يقول: هل تجدون في البيت صورة؟! إنني أرى الملائكة عند الباب! فبحثنا في البيت فوجدنا علبة حليب فأخرجناها، وإذا به يقول: مرحبًا بكم، أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدًا رسول الله! ثم فاضت روحه. فجاءت ابنته إلى عمها، وقالت: يا عم، إن لأبي أسرار فهل أبوح بها؟! فقال لها: نعم، إن والدك مات، فقالت: كان من أسراره أنه ليلة الجمعة يطلب مني أن أنظر في الشارع هل أرى أحدًا؟ فإذا لم أجد أحدًا يأخذ السراج والمجمر، والمكنسة، وأخرج معه، ونذهب إلى المسجد، فيفتح المسجد، ثم يوقد السراج، ويشعل الفحم على مجمر البخور، فيطيِّب المسجد، ثم يكنس المسجد، ويرتب الفُرُش، وبعد الفراغ يطفئ السراج، ويقول لي: اخرجي وانظري هل ترين أحدًا، فإذا لم أر أحدًا خرج مسرعًا إلى البيت، فلا يراه أحد، وهكذا كان يفعل كل ليلة جمعة!

وهذا الرجل رحمه الله كان له خدم وحشم، ولو أمرهم بتنظيف المسجد وتطييبه لفعلوا، ولكن أحبَّ أن يفوز بنفسه بهذا الشرف، فيكون من نصيبه، ولم يكتف بهذا بل جعله من الأعمال الخفية بينه وبين الله تعالى، حتى يفوز بأرفع الدرجات.. فكانت خاتمته عند الموت خاتمة حسنة، ويُرْجَى له يوم القيامة أن لا يضيع ثواب هذا العمل ..

قصة واقعية: تبرعت ببيتها ليكون مسجداً

- وهذه امرأة في إحدى القرى في أندونيسيا، لم يكن في قريتها التي تسكن فيها مسجد فتبرعت ببيتها ليكون مسجدًا، ولم تقف هذه المرأة عند هذا الحد، بل باعت سوارًا لها في يدها لا تملك غيره؛ لتشتري به فُرُشًا للمسجد، وبعد أن قام المسجد كانت هذه المرأة تقوم على نظافته وتطييبه. وكانت تمكث في آخر المسجد، حتى إذا خرج المصلون أغلقت المسجد. وهكذا فإن هذه المرأة مع تبرعها ببيتها ليكون مسجدًا، قامت بعمارته بالفُرُش، والقيام على نظافته، وحراسته.

وهذه القصة تشهد أن في النساء نساء صاحبات همة عالية، وكثير من مثل هؤلاء النساء تجدهن أفضل من بعض الرجال.

===❋❋❋===

الباكون من خشية الله فائزون بأعلى المراتب .. وهي منزلة لا ينالها إلا صادق الإيمان، وعندما يمتزج الصدق بالخشية من الله عز وجل تفيض دموع العين مدرارًا .. ويكفيك في شرف البكاء من خشية الله أنه مرتبة الأنبياء والمرسلين عليهم الصلاة والسلام، قال الله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنۡ حَمَلۡنَا مَعَ نُوحٖ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡرَٰٓءِيلَ وَمِمَّنۡ هَدَيۡنَا وَٱجۡتَبَيۡنَآۚ إِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُ ٱلرَّحۡمَٰنِ خَرُّواْ سُجَّدٗا وَبُكِيّٗا ۩ ﴿٥٨﴾﴾ [سورة مريم: ٥٨]. وقال ﷺ: (**لا يَلِج النار رجل بكى من خشية الله؛ حتى يعود اللَّبن في الضرع**). رواه الترمذي.

وأشرف الباكين من خشية الله منزلة هم أهل الخفاء .. الذين لم ير دموعهم أحد غير الذي بكوا من خشيته عز وجل! وكان أول ما نالوه من الجزاء هو الظل في يوم لا ظل فيه إلا لمن أظله الله، كما أخبر عليه الصلاة والسلام عن السبعة الذين يظلهم الله يوم لا ظل إلا ظله، وذكر منهم: (**ورجل ذكر الله خاليًا ففاضت عيناه**). رواه البخاري ومسلم.

لا يعلم بدموعهم إلا الله!

أولئك الباكون من خشية الله .. الأخفياء .. الأتقياء .. تسيل دموعهم ولا يعلم بها إلا الله .. وفي أمثال هؤلاء الرجال قال الحسن البصري: (إنْ كان الرجل ليجلس

المجلس فتجيئه عَبْرتُه فيردّها، فإذا خشي أن تسبقه قام)! وفي أمثال هؤلاء الرجال قال محمد بن واسع: (لقد أدركت رجالًا كان الرجل يكون رأسه مع رأس امرأته على وسادة واحدة، قد بلَّ ما تحت خدّه من دموعه، لا تشعر به امرأته! ولقد أدركت رجالًا يقوم أحدهم في الصف فتسيل دموعه على خدّه ولا يشعر به الذي إلى جانبه)! وقال أيضًا: (إن الرجل ليبكي عشرين سنة وامرأته معه لا تعلم)! [حلية الأولياء: ٣/ ٦، تهذيب الكمال: ١٤/ ٤٦٤، سير أعلام النبلاء: ٦/ ١٢٢].

ما أشد الزكام!

قائل هذه العبارة هو الرجل الذي قال فيه الإمام الحسن البصري: (أيوب سيد شباب أهل البصرة)! إنه الإمام أيوب السختياني .. الحجة في حديث رسول الله ﷺ .. وكان يفر من الشهرة فرارًا شديدًا، وهو القائل: (ما صدق عبد قط فأحب الشهرة)! ونصح في موعظته عندما دعا الناس إلى إخفاء أعمالهم خوف الرياء، وقد قال: (لأن يستر الرجل الزهد خير له من أن يظهره)، وقال شعبة: (ربما ذهبت مع أيوب لحاجة، فلا يدعني أمشي معه، ويخرج من ها هنا ها هنا، لكي لا يُفطن له)!

ومنزلة أيوب السختياني في البكاء من خشية الله منزلة رفيعة، لم يقنع فيها بالدرجة النازلة، بل ارتفعت همته لتنال أعلى الدرجات؛ فكان من الأخفياء الذين لا يريدون شكر الناس ولا ثناءهم، ولكن مرادهم الأعظم هو ما عند الله تعالى. ويخبرنا حماد بن زيد عن دموع الخشية عندما تغلب أيوب السختياني؛ فيقول: (غلب أيوب البكاء يومًا، فقال: الشيخ إذا كبر مَجَّ، وغلبه فُوه! فوضع

يده على فيه، وقال: الزكمة ربما عرضت)! وحكى لنا أيضًا بكر بن أيوب عن دموع أبيه إذا غلبته، قال: (كان إذا رقَّ ودمعت عيناه؛ حك أنفه وقال: ما أشد الزكام)! [حلية الأولياء: ٣/ ٦، الثقات: ٨/ ١٤٦، سير أعلام النبلاء: ٦/ ٢٠١].

يبكي الليل كله!

إنه محدِّث الكوفة وفقيهها.. وقالوا لسفيان الثوري: مَن خَلَّفْت بالكوفة؟ فقال: (ما خلَّفْتُ أحدًا آمن على حديث رسول الله ﷺ من منصور بن المعتمر)!

إذًا هو منصور بن المعتمر رحمه الله .. العابد .. الزاهد .. قال سفيان بن عيينة: (صام منصور ستين سنة، يقوم ليلها ويصوم نهارها رحمه الله)! وعرضوا عليه منصب القضاء فرفض، ويحكي أبو بكر بن عياش: (أنه ربما يكون مع منصور بن المعتمر جالسًا في منزله، فتصيح به أمه، وكانت فظة عليه، فتقول: يا منصور، يريدك ابن هبيرة على القضاء فتأبى)؟!

وكم ذرف منصور بن المعتمر من دموع الخشية بالليل حيث لا يراه أحد إلا الله عز وجل .. فإذا كان الصبح؛ كحل عينيه، ودهن رأسه، وبرق شفتيه، وخرج إلى الناس! [تاريخ الإسلام: ٣/ ٧٤١، سير أعلام النبلاء: ٦/ ١٣١، إكمال تهذيب الكمال: ١١/ ٣٧٤].

دموع الخفاء أغلى من الدنيا

كانوا يرون أن دمعة الخفاء لا يعدلها شيء ولا حتى الدنيا كلها .. ومن هؤلاء أبو وائل شقيق بن سلمة رحمه الله .. الذي شغلته الآخرة عن الدنيا .. يمر بالسوق فيسمع الناس يقولون: دانق وقيراط، فالتفت إلى عاصم بن أبي النجود، وقال: يا عاصم، أيهما أكثر؟! قال عاصم: الدانق، قال: ما أدري!

ومن ارتفعت همته حتمًا سيطلب أعلى الدرجات في العمل الصالح، وقد اختار أبو وائل شقيق بن سلمة لنفسه أن يكون من أولئك الذين إذا خلوا في ظلمة الليل ذرفوا دموع الخشية من ملك الملوك عز وجل .. ويخبرنا عاصم بن أبي النجود عن حال هذا الصالح فيقول: (كان أبو وائل إذا صلى في بيته يَنْشِج نشيجًا، ولو جُعلت له الدنيا على أن يفعله وأحد يراه، ما فعله)! وعن أبي وائل هذا قال إبراهيم التيمي: (ما من قرية إلا وفيها مَن يُدفع عن أهلها به، وإني لأرجو أن يكون أبو وائل منهم). [الثقات: ٤/ ٣٥٤، تهذيب الأسماء واللغات: ١/ ٢٤٧، سير أعلام النبلاء: ٤/ ١٦٥].

بهذه الخشية فُضل علينا!

(بهذه الخشية فَضُل هذا الرجل علينا)! بهذه الكلمات ختم القاسم بن محمد إقراره بفضل الإمام عبد الله بن المبارك على أهل زمانه، فيا تُرى ما قصة هذا الإقرار؟! قال القاسم بن محمد: (كنا نسافر مع ابن المبارك، فكثيرًا ما كان

يخطر ببالي فأقول في نفسي: بأي شيء فَضُل هذا الرجل علينا حتى اشتهر في الناس هذه الشهرة؟! إنْ كان يصلي إنَّا نصلي، ولئن يصوم إنَّا لنصوم، وإنْ كان يغزو فإنَّا لنغزو، وإنْ كان يحج إنا لنحج! قال: فكنا في بعض مسيرتنا في طريق الشام ليلة نتعشى في بيت إذ طُفِئ السراج، فقام بعضنا فأخذ السراج وخرج يستصبح، فمكث هنيهة ثم جاء بالسراج، فنظرت إلى وجه ابن المبارك ولحيته قد ابتلت من الدموع! فقلت في نفسي: بهذه الخشية فَضُل هذا الرجل علينا، ولعله حين فقد السراج فصار إلى الظلمة؛ ذكر القيامة)!

وقد شهد الإمام أحمد بن حنبل للإمام ابن المبارك شهادة هي أعظم من شهادة القاسم بن محمد، قال ابن حنبل: (ما رفع الله ابن المبارك إلا بخبيئة كانت له)! [صفة الصفوة: ٢/ ٣٣٠].

===❊❊❊===

وهذه قصة واحد من أصحاب رسول الله ﷺ؛ ضرب لنا فيها أروع مثل في الإكرام، والإيثار، وإخفاء العمل الذي لا يعلم به إلا الله تعالى .. وجاء في القصة أنَّ رجلًا جاء إلى رسول الله ﷺ، فقال: إني مجهود، فأرسل رسول الله ﷺ إلى بعض نسائه ، فقالت: والذي بعثك بالحق ما عندي إلا ماء ، ثم أرسل إلى أخرى ، فقالت مثل ذلك، حتى قلن كلهن مثل ذلك: لا والذي بعثك بالحق ما عندي إلا ماء، فقال عليه الصلاة والسلام: مَن يُضِيف هذا الليلة؟ رحمه الله ، فقام رجل من الأنصار يقال له: أبو طلحة #، فقال: أنا يا رسول الله، فانطلق به إلى رحله فقال لامرأته: أكرمي ضيف رسول الله ﷺ، هل عندك شيء؟ قالت: والله ما عندي إلا قوت صبياني، فقال: فعَلِّليهم بشيء، فإذا أراد الصبية العشاء فنوِّميهم، وهيئي طعامك، وأَصْبِحي سراجك؛ فإذا دخل ضيفنا ليأكل؛ فقومي إلى السراج حتى تطفئيه، وأرِيهِ أنَّا نأكل، ونطوي بطوننا الليلة.

فلما دخل الضيف؛ هيَّأت طعامها، وأَصْبَحت سراجها، ونوَّمت صبيانها، ثم قامت كأنها تصلح سراجها، فأطفأته، فقعدوا، فجعلا يُرِيانه أنهما يأكلان، فأكل الضيف، وباتا طاوِيَيْن، فلما أصبح غدا إلى النبي ﷺ، فقال عليه الصلاة والسلام: (**قد عَجِب الله من صنيعكما بضيفكما الليلة**)، فأنزل الله: ﴿وَٱلَّذِينَ

تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلۡإِيمَٰنَ مِن قَبۡلِهِمۡ يُحِبُّونَ مَنۡ هَاجَرَ إِلَيۡهِمۡ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمۡ حَاجَةَۭ مِّمَّآ أُوتُواْ وَيُؤۡثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ وَلَوۡ كَانَ بِهِمۡ خَصَاصَةٞۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفۡسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ٩﴾ [سورة الحشر: ٩]. رواه البخاري ومسلم.

===❊❊❊===

حدثني الشيخ علي بن أحمد آل مطري وفقه الله، قال: كنت في محاضرة وكنت أتكلم عن بر الوالدين فقال لي إمام المسجد: عندنا شاب يقدم صنائع في بر والدته، وكان يصلي معنا، فأخبرني أحد الإخوة عن تأخره عن الصلاة، فذهبت إلى بيتهم زائرًا لأطمئن عليه، فوجدت عنده أمرًا عجبًا، وهو الذي يمنعه أحيانًا عن الحضور للصلاة؛ فقد كانت أمه مريضة طريحة الفراش، وكان هذا الشاب يمرِّضها.

قال الشيخ: ولما انتهيت من المحاضرة سألت الإخوة: من هذا الشاب؟!

فقالوا: هذا الشاب هنا، وأروني بيته.

فذهبت إلى البيت، وطرقت الباب، فخرج الشاب فسلمت عليه، وسألته عن صحته، وقلت له: جزاك الله خيرًا على ما تقدمه لوالدتك وهنيئًا لك هذا العمل.

فقال: مهما أقدم فأنا مقصر في حقها، فهي من تعبت من أجلي، وهذا شيء قليل من رد الجميل.

فقلت له: أريد سماع هذه القصة منك حتى أذكرها عنك، سواء في قنوات فضائية، أو مساجد، والحمد لله لي مشاركات في داخل المملكة وخارجها ولعل أحد الناس يتأثر بها، ممن يكون عاقًا بأمه، فالإنسان إذا سمع هذه القصص المؤثرة يتأثر بها، فتكون في ميزان حسناتك، وأنت بهذا كالداعية إلى بر الوالدين.

فقال لي: أمي مريضة وهي لا تستطيع القيام، ولا أحد يخدمها إلا أن أكون قريبًا منها. وطلب مني أن أقرأ عليها، فوافقت نزولًا لرغبته، ودخلت معه إلى غرفة أمه، فإذا هي ممددة، وعند رأسها كرسي بلاستيك يجلس عليه الشاب.

وقال: أنا بهذه الطريقة أجلس عند رأسها، وهي تناديني في كل مرة ، وتريد مني مرة أن أنظفها، ومرة تريد دواء، ومرة تريد ماءًا، فما أحب أن أكون بعيدًا منها، بل أجلس على كرسي البلاستيك وأُؤَانِسها بالحديث، حتى تحس بقربي منها، وهي تبكي كالطفل إذا أردت الخروج من البيت! ولذلك فأنا مضطر إلى الجلوس بجوارها، ولا أستطيع النوم إلا إذا نامت أمي، فأنام على هذا الكرسي بجوارها!

وقال: أنا على هذا الحال ثلاث سنوات ما نمت ليلة من الليالي، ووقت راحتي عندما تأتي أختي المتزوجة صباحًا! ثم قال الشيخ: سمعتها تدعو لابنها أن يصلحه، ويرزقه الذرية الصالحة، وهي تقول: اللهم أتعب نفسه وسهر من أجلي فوفِّقه.

ودعوة الوالد مستجابة .. وبرّ هذا الشاب بأمه ما كان يعلمه أحد، وذكر لي القصة ليعتبر بها الناس، وينشطوا في بر والديهم، وكلنا مقصر في برهما، ومن كان عاقًّا لوالديه لعله يتأثر، ويتبدل حاله من العقوق إلى البر.

ولكن هذا الشاب اشترط عليَّ وقال: لا أريد أن يعرف الناس اسمي، ولا قريتي!

فهذه قصة واقعية، وفيها درس وعظة في التفاني في بر الوالدين، وطلب الدرجة العالية في أن يكون العمل خالصًا لله، لا يطلب العبد ثوابه إلا منه عز وجل..

===❊❊❊===

هنالك رجال صار بينهم وبين أعمال البر والخير نسب قريب، يحرصون على صلته وبره، ويجتنبون قطيعته.. بل صار حب عمل الخير يجري في دمائهم كما يجري الأكسجين، لا يعيشون بدونه! بل ويشعرون بالسرور أضعاف ما يشعر به مَن يحسنون إليه! قال مجاهد: (صحبت ابن عمر -رضي الله عنهما- في السفر لأخدمه فكان يخدمني أكثر)! وكان حكيم بن حزام -رضي الله عنه- يحزن على اليوم الذي لا يجد فيه محتاجًا ليقضي له حاجته، فيقول: (ما أصبحت وليس ببابي صاحب حاجة؛ إلا علمت أنها من المصائب التي أسأل الله الأجر عليها)!

ولكن لأهل الخفاء خبر عجيب! إذ إنهم مزجوا عمل الخير بأطيب طِيب يفوح عبيره في ملكوت من أخلصوا له العمل عز وجل!

قبل موته بأيام اكتشف أبناؤه السر!

عندما يكون صاحب العمل الخفي هو والدك، ولا تعلم عن هذا العمل إلا قبل وفاته بشهور قلائل؛ فإنك أمام كنز من الأسرار.. بل وأمام جبل تتقاصر دونه أنظار الناظرين!

وقصتنا هذه قصة واقعية.. لم ينسجها الخيال، ولا حبكتها أقلام الروائيين! وأنا أرويها لكم بلسان ابن هذا الوالد الذي أخفى جبلًا من أعمال الخير لم ينكشف إلا قبل موته بشهور قلائل! وسأذكر لكم اسم هذا الرجل في نهاية القصة.

قال الابن: (انتشر صِيته بعد وفاته وتفاجأ بأعماله أصحابه، وأقاربه، إذ لم يكن رحمه الله كثير الكلام، وتوالت علينا قصص كثيرة ومتفرقة، جديدة علينا وخفية عنا، صرح بها البعض عن فضله عليهم)!

كانت هذه الكلمات هي التي ختم بها الابن قصة والده التي سأرويها لكم، وقصدت أن أجعلها في بداية القصة للتنبيه على السر الخفي الذي يرفع الله به ذكر مَن شاء من عباده في الدنيا والآخرة!

وسأترككم الآن مع قصة رجل أخبره الطبيب بقُرْب وفاته .. بل حدد ميعادها بحسب الفحوصات الطبية، بعد اكتشاف إصابته بمرض السرطان! وكانت المدة ستة أشهر، وهو ما حصل فعلًا بإذن الله وقدرته .. وكان من خبر هذا الرجل خلال هذه الأشهر الستة:

* تلقَّى خبر مرضه بانشراح صدر ويقين، حتى تعجب منه الطبيب الذي لم ير مثله في مثل هذه الحالات!
* انطلق خلال هذه الأشهر الستة يُصَفِّي حساباته من الدنيا ويستعد للموت، حتى ملابسه أخرجها كلها ولم يُبْقِ منها شيئًا.
* كتم خبر مرضه حتى عن زوجته، وتحت إلحاح شديد من أحد أبنائه وقبل وفاته بعشرة أيام أخبر بمرضه.

* قبل وفاته بأيام طلب من زوجته أن تشتري لها ملابس شتوية، فتعجبت، إذ الشتاء لم يبدأ بعد، والواقع أنه يهيئها لفترة الحِداد!
* في أيامه الأخيرة كان ثابتًا، قوي الجَنان، وزوّاره يتعجبون من ثباته ويقينه في استقبال الموت، وكان مبتسمًا مزوحًا معهم، ومن كلماته الأخيرة: واشوقاه لرب ألقاه!

وأترككم مع ابنه يحكي لنا قصة النهاية، قال الابن: رأيت منه رحمه الله خلال هذه الأشهر الست أمورًا أعجب منها كثيرًا ولا أجد لها تفسيرًا إلا بعد عِلمي بمرض وفاته، ولا مجال لذكرها كلها، ولكن منها: أنه رحمه الله تنقَّل خلال هذه الأشهر الأخيرة وبشكل سريع بين عدة دول، والحقيقة أنني لم أعجب كثيرًا، فالوالد رحمه الله كان كثير السفر، لكن الذي فاجأني به هو طلبه أن أذهب معه إلى واحدة من هذه الدول، وتحت إلحاح منه وافقته وذهبت، فلما ذهبت وجدت أمورًا لم تخطر لي في بال!

صاحبته في هذه الدولة أسبوعًا واحدًا فقط، أجبرني بعدها على العودة إذ لم يُرد مني إلا توقيعًا بنكيًا يحفظ المال بعد وفاته، لأن النظام في هذه الدولة يقتضي ذلك.

في هذا الأسبوع الذي صاحبت فيه والدي، وفي هذه الرحلة التي ظننتها كما ظن غيري أنها سياحية وممتعة، في هذه الرحلة؛ عرفت حقائق لم أعرفها سابقًا عن والدي وأنا ابنه! كنا نستيقظ مبكرًا وبعد صلاة الفجر، نتناول فطورًا بسيطًا ساندويتش، ثم نأخذ معنا كل أمتعتنا لأننا لن نعود إلى نفس مكان الإقامة، ثم

نتجول عبر مناطق وعرة ونائية، بل وخطرة، إذ كانت الحرب الأهلية قائمة في هذه الدولة، ونستمر على هذا المنوال إلى مغيب الشمس، وربما لا نجد فندقًا مناسبًا، فننام أحيانًا في غرف غير مكيفة ونكتفي بالمروحة.

كنت أرحم والدي الذي كان رأسه يترنح في الطرق الوعرة والضيقة بين الجبال والوديان، أنا نفسي كنت أتعب تعبًا شديدًا، فكيف بمن بلغ عمره السبعين، ويعاني من المرض الذي كان فيه موته؟! وكنت أرحم السائق الذي يتحمل جَلَد والدي وهمته، وربما كان غداؤنا عبارة عن بسكويت وماء، وأحيانًا نقف لتناول بعض الفواكه، أو الشاي، وأظن وقوفنا هذا كان رحمة من والدي بالسائق.

استمريت معه على هذا المنوال سبعة أيام من غير توقف، ثم أجبرني على العودة واستمر هو. وكان معنا رجل من أهل البلد ينسق أعماله، ومنه علمت أن والدي بنى وشارك في بناء أربعمائة مشروع خيري بين مسجد، ومدرسة، فقط في هذه الدولة! نعم.. أربعمائة مشروع خيري في دولة واحدة، وفي سفرات كنا نظنها فقط للسياحة والمتعة والنزهة! فوالدي رحمه الله لم يكن يتحدث عن سفراته الكثيرة إلا عن ما يتحدث عنه السُّيَّاح، كما أن ظاهر الوالد ومعيشته وكلامه لا يظهر منه أي شيء يدل على مثل هذه الأعمال التي اكتشفناها قبل وفاته بقليل!

وأما بعد وفاته فاكتشفنا الأضعاف، ومازلنا نكتشف حتى تاريخ كتابة هذه الأسطر، وقد مضى على وفاته أربعة عشر عامًا تصلنا معلومات عن بذله

وعطائه في عدة دول، وربما أقام في بعضها وقفًا لا نعلم نحن عنه!

وانتشر صيته بعد وفاته، وتفاجأ بأعماله أصحابه، وأقاربه، إذ لم يكن رحمه الله كثير الكلام، وتوالت علينا قصص كثيرة ومتفرقة جديدة علينا وخفية عنا، صرح بها البعض عن فضله عليهم، وحينها علمنا ونحن أبناؤه وأقرب الناس إليه أننا نقف أمام جبل شامخ من العطاء، والبذل، الصامت والخفي!

ثم استطرد ابنه فقال: أن هذا في دولة واحدة، ولا يُعلم عن الدول الأخرى التي نجزم بوجود أعمال خيرة له فيها، لكن لا نعلم حتى الآن مقدارها!

ويواصل ابنه قائلًا: مرة من المرات وبعد فترة طويلة من وفاة والدي رحمه الله اتصل بي رقم غريب، فلمَّا رددت عليه إذ به من دولة نائية: (النيبال) لا أذكر الآن كيف حصل على رقمي، لكن تبيَّن أن والدي كان قد شارك في مشروع خيري هناك، فذهبت إلى تلك الدولة وشاهدت بعض أعماله، وقد تم تصويره هناك من حيث لا يشعر. انتهى كلام ابنه.

وقد لا يظنَّ ظان أن هذه الأعمال من جبال الخيرات قد فعلها هذا الرجل الصالح بعد علمه بمرضه، وهذا غير صحيح، بل إنه قد فعل هذه المبرَّات العظيمة قبل مرضه بسنوات طويلة، وهذه بُشْرَى أخرى، وهي: أن يبذل المرء المال والخير وهو صحيح، شحيح بالدنيا، وهو برهان الإخلاص، وصدق العمل ..

وإلى هنا أصل بكم إلى نهاية هذه القصة الواقعية .. وحتمًا أنتم متشوقون إلى معرفة هذا الرجل .. بل الجبل في فعل الخيرات! فصاحب قصتنا هذه هو

محمد بن عبد الله بن منصور الزامل رحمه الله، ورفع درجته في جنته إلى منازل الصديقين، في نعيم لا ينفد، وسرور لا ينقطع .. وبارك الله في ذريته وأهل بيته أجمعين ..

وهذه القصة التي رويتها لكم قد أذِنَ لي بكتابتها ابن الشيخ محمد بن عبد الله الزامل رحمه الله، والذي كان رفيق والده في سفرته الأخيرة بعد مرضه، فله مني عظيم الشكر على الاستجابة لطلبي في تضمين قصة والده ضمن قصص هذا الكتاب، وقد أثبَتُّ النص الذي أرسله لي من غير تصرُّف ..

===❊❊❊===

الخاتمة
ثمرات عبادة الخفاء اليانعة

الذي يجنيه أهل الخفاء من الثمرات عظيم، وهو لا ينحصر في هذا الذي ذكرته في هذا الموضع، وإذا أردتم أن تقفوا على عِظَم أجر أهل الخفاء فاقرؤوا قوله تعالى: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾﴾ [سورة السجدة: ١٧]. ففي هذا الآية وصف لحال القائمين المخبتين لله في ظلمة الليل، حيث تنام العيون، ويغفل الغافلون، ولكن عيون هؤلاء المخلصين لم تَنَمْ، فهي ساهرة تلتمس عبادة ملك الملوك عز وجل، فكانت الجائزة بقدر هذا العمل العظيم: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾﴾.

فأين أنت أيها الموفق من هذه الثمرة العظيمة؛ التي شمَّر من أجلها المشمِّرون، ودندن حولها الصالحون؟!وإليك هذه النبذة من ثمرات عبادة الخفاء لتقف على شرف عمل أهل الخفاء ..

(١) صدق الإيمان:

وصدق الإيمان نتيجة حتمية لإخفاء العبادة؛ لأن مَن عبد الله سرًّا فهو على يقين أن الله يعلم سره، وجهره، ولا يخفي عليه شيء من أمره، يجازي

المحسن على إحسانه، والمسيء على إساءته، وهذه الدرجة إذا بلغها العبد فهي درجة الإحسان التي قال فيها رسول الله ﷺ: (**أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك**). رواه البخاري ومسلم.

(٢) السلامة من الرياء:

وهذه ثمرة عظيمة، ومن أجلها دندن الصالحون خوفًا على أعمالهم فسلمت لهم عباداتهم، وطاعاتهم، وهذه الثمرة هي أعظم ربح في تجارة النيات، ومن خفايا هذه التجارة، والتي لا يعلمها إلا أهل الخفاء؛ أن العبد قد يبدأ عبادةً وطاعةً بنية صحيحة؛ فيوسوس له الشيطان، وتزيَّن له نفسه حتى يحب أن يرى الناس عمله؛ فيتحول الإخلاص إلى رياء، وفي هذا يقول رسول الله ﷺ: (**إن أخوف ما أخاف عليكم الرياء، والشهوة الخَفِيَّة**) رواه البيهقي في شعب الإيمان.

والذي يُخفي عبادته سَلِم من هذا الداء الخطير؛ لأنه لم يلتفت في عمله لغير الله تعالى، فهو بعيد عن أعين الناس، ولخطورة أمر الرياء؛ فإن الصحابة رضي الله عنهم كانوا يعدونه من الشرك الأصغر، فعن شداد بن أوس -رضي الله عنه- ، قال: (كنا نعُدُّ الرياء على عهد رسول الله ﷺ؛ الشرك الأصغر). رواه الطبراني في المعجم الكبير. وقد حذَّرنا رسول الله ﷺ من الرياء، حتى جعله أشد من فتنة الدجال، فعن أبي سعيد الخدري -رضي الله عنه-، قال: خرج علينا رسول الله ﷺ ونحن نتذاكر المسيح الدجال، فقال: (**ألا أخبركم بما هو أخوف عليكم**

عندي من المسيح الدجال)؟! فقلنا: بلى، قال: **(الشرك الخفي، أن يقوم الرجل يصلي، فيُزَيِّن صلاته لما يرى من نَظَر رجل)**. رواه ابن ماجه.

وأهل الخفاء سلموا من هذا الشر كله، وسلِمت لهم أعمالهم؛ ليكونوا في درجة أهل الإخلاص، والمتقين والناجين يوم القيامة.

(٣) صلاح القلب وطهارته:

في الخلوة بالنفس، وعبادة السر راحة النفس وطمأنينتها، وانشراحها، لأن في الابتعاد عن أعين الناس عون عظيم على صلاح القلب، وقد كان السلف يهتمون بصلاح القلب، و في صلاح القلب صلاح الجسد كله، وفي هذا قال عليه الصلاة والسلام: **(ألا وإنّ في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كلّه، وإذا فسدت فسد الجسد كلّه، ألا وهي القلب)**. رواه البخاري ومسلم.

وقال بعض الصالحين: (مَن أكثر عبادة السر أصلح الله له قلبه شاء العبد أم أبَى)!

(٤) أعظم أجراً:

عبادة السر وطاعات السر أجرها مضاعف؛ لأن العبد فيها لا يطلب الأجر من أحد غير الله تعالى، ولأنه أخفاها من الناس فيكون الصدق فيها أعظم،

ولذلك قال تعالى: ﴿إِن تُبْدُواْ ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ [سورة البقرة: ٢٧١]. وقال النبي ﷺ: (**إن أقرب ما يكون الرب -عز وجل- من العبد جوف الليل الآخر** ..). رواه الترمذي والنسائي وابن ماجه.

(٥) حسن الذكر عند الناس:

حال الذي يخفي عبادته، وعمله، ويحرص أن تكون التجارة بينه وبين الله تعالى؛ كحال العطر الفيَّاح مهما أخفيته فإن ريحه الزاكية سيجدها الناس، ووصف ابن المبارك الإمام مالك بن أنس رحمهما الله، فقال: (ما رأيت أحدًا ارتفع مثل مالك، ليس له كثير صلاة، ولا صيام، إلا أن تكون السريرة)! [ترتيب المدارك: ٢/ ٥١]. وصدق ابن الجوزي في قوله: (والله! لقد رأيت من يكثر الصلاة، والصوم، والصمت، ويتخشع في نفسه ولباسه، والقلوب تَنْبُو عنه، وقدْره في النفوس ليس بذاك، ورأيتُ من يلبس فاخر الثياب، وليس له كبير نفل، ولا تخشع، والقلوب تتهافت على محبته، فتدبرت السبب، فوجدته السريرة! فمن أصلح سريرته فاح عبيرُ فضله، وعبقت القلوبُ بنَشْر طيبه، فالله الله في السرائر؛ فإنه ما ينفع مع فسادها صلاح ظاهر). [صيد الخاطر: ٢٢٠].

(٦) الثبات في المحن والفتن والشدائد:

عبادة الخفاء من أسباب الثبات في المحن والفتن، وهي حرز للمسلم من الوقوع في الشبهات، والشهوات، قال ابن القيم: (الذنوب الخفيات أسباب الانتكاسات، وعبادة الخفاء أصل الثبات)، وقد شبه النبي ﷺ المؤمن بالنخلة لثبات جذورها، كما أن المنافق لا يستطيع القيام بالعمل الخفي، فجاء في قوله تعالى: ﴿كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ﴾ [سورة المنافقون: ٤].

وقد قيل: إن من أسباب الثبات طاعة الخلوات.

(٧) رصيد ينفع عند الشدائد:

وعبادة الخفاء رصيد ينفع صاحبه عند الشدائد، عندما تشتد عليه الأمور؛ فيتوسل إلى الله تعالى بطاعته، وأعماله الصالحة، وقد أخبرنا الله تعالى في قصة نبيه يونس عليه الصلاة والسلام أن نجاته من بطن الحوت كانت بسبب تسبيحه، وهو تسبيح خفي، فخرج من صاحبه بإخلاص، فكانت الثمرة نجاته من شدة ظلمة بطن الحوت، وشدة ظلمة البحر، قال تعالى: ﴿فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤٤﴾﴾ [سورة الصافات: ١٤٣-١٤٤].

وفي قصة الثلاثة الذين انطبقت عليهم الصخرة، ولم يستطيعوا الخروج من الغار، توسلوا إلى الله بأعمالهم الخفية، فكان الأول: بارًّا بوالديه، وأما الثاني:

ترك الفاحشة خوفًا من الله، والثالث: حفظ مال الأجير واستثمره له حتى كثُر وأعطاه له كله. وكان ذلك سبب نجاتهم. والحديث طويل رواه البخاري.

والله نسأله حُسن العمل في السر والعَلَن، وأن يجبر تقصيرنا وتفريطنا بعفوه، وأن يجعلنا من أهل الخواتم الحسنة، الفائزين برضوانه الأكبر، ونعيم جناته الأنضر ..

والحمد لله ربّ العالمين، وصلى الله وسلَّم على النبي وآله وصحبه الطاهرين ..

===❋❋❋===

- الآداب الشرعية والمنح المرعية: محمد بن مفلح المقدسي.
- إكمال تهذيب الكمال: مغلطاي بن قليج الحنفي.
- بغية الطلب في تاريخ حلب: عمر بن أحمد الشهير بابن العديم.
- تاريخ الإسلام: محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي.
- تاريخ الثقات: أحمد بن عبد الله العِجْلي.
- تاريخ بغداد: أبو بكر أحمد بن علي الخطيب البغدادي.
- تاريخ دمشق: أبو القاسم علي بن الحسين الشهير بابن عساكر.
- ترتيب المدارك وتقريب المسالك: القاضي عياض بن موسى اليحصبي.
- تهذيب الأسماء واللغات: محيي الدين يحيى بن شرف النووي.
- تهذيب التهذيب: أحمد بن علي بن حجر العسقلاني.
- تهذيب الكمال في أسماء الرجال: يوسف بن عبد الرحمن المِزّي.
- الجرح والتعديل: عبد الرحمن بن محمد ابن أبي حاتم.
- الجواهر المضية في طبقات الحنفية: عبد القادر بن محمد القرشي الحنفي.
- حلية الأولياء وطبقات الأصفياء: أحمد بن عبد الله الأصبهاني.
- الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب: إبراهيم بن علي ابن فرحون.

✍ روضة المحبين ونزهة المشتاقين: محمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية.
✍ الزهد: هنَّاد بن السَّري.
✍ سلم الوصول إلى طبقات الفحول: مصطفى بن عبد الله القسطنطيني الشهير بحاجي خليفة.
✍ سنن ابن ماجه: محمد بن يزيد القزويني.
✍ سنن الترمذي: محمد بن عيسى الترمذي.
✍ سنن النسائي: أحمد بن شعيب النسائي.
✍ سير أعلام النبلاء: محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي.
✍ سير السلف الصالحين: إسماعيل بن محمد الأصبهاني.
✍ شرح صحيح البخاري: علي بن خلف الشهير بابن بطَّال.
✍ صحيح ابن حبَّان: محمد بن حِبَّان التميمي.
✍ صحيح البخاري: محمد بن إسماعيل البخاري.
✍ صحيح مسلم: مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري.
✍ صفة الصفوة: عبد الرحمن بن علي ابن الجوزي.
✍ صيد الخاطر: عبد الرحمن بن علي ابن الجوزي.
✍ طبقات الحنابلة: محمد بن محمد ابن أبي يعلى.
✍ طبقات الشافعيين: إسماعيل بن عمر بن كثير الدمشقي.
✍ الطبقات الكبرى: محمد بن سعد الشهير بابن سعد. لابن سعد.
✍ عيون الأخبار: عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري.

✍ غيث النفع في القراءات السبع: علي بن محمد المقرئ المالكي.

✍ مسند أحمد: أحمد بن محمد بن حنبل الشيباني.

✍ مناقب الإمام الشافعي: أبو بكر أحمد بن الحسين البيهقي.

✍ وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان: أحمد بن محمد ابن خلِّكان.

===❊❊❊===

فهرس الموضوعات

المقدمة ٥
تمهيد ٧
(١) الأخفياء وإخلاص القصد لله تعالى ١٠
من فضلك أن لا تعرف ١١
لسنا نشتري بديننا ١١
لا يعُدُّ ما ظهر من عمله شيئًا ١٢
يخشى من الرياء بعد الموت! ١٣
يخشى أن تأكل الشهرة حسناته ١٣
يبكي خوفًا من الشهرة! ١٤
(٢) الأخفياء والعلم ١٦
الإمام طاووس بن كيسان ١٦
الإمام سفيان الثوري ١٧
الإمام ابن المبارك ١٨
الإمام الشافعي ١٩
الإمام النووي ٢١

(٣) الأخفياء إذا صلوا ٢٣
قدوة الأخفياء ٢٣
بشره بالجنة في حياته! ٢٤
لا يريد أحدًا يسمع مناجاته ﷻ تعالى ٢٥
يُخفي صلاته بالليل ٢٥
يخفي صلاته حتى في السفر ! ٢٦
يريد الخفاء حتى من الملكين ٢٧
لم أر رجلًا أسرَّ بالخير منه ٢٨
يصلي بعد أن تنام امرأته ٢٩
(٤) الأخفياء إذا صاموا ٣١
صام أربعين سنة ولا يعلم به أحد ٣١
يصوم وأهله لا يدرون! ٣٢
مَن دعاني أكلت ٣٣
(٥) الأخفياء إذا تصَّدقوا ٣٥
ينفق على مائة بيت ولا يعرفونه ٣٥
لا يدري من قضى دَيْنه! ٣٦
قصة واقعية: لا يدري من قضى دَيْنه! ٣٧
قصة واقعية: امرأة بدوية تخفي صدقتها ٣٨
قصة واقعية: يقضي ديونهم ولا يدرون مَن قضاها! ٣٨

(٦) الأخفياء إذا حجوا واعتمروا ٤١
(٧) الأخفياء والقرآن ٤٤
يستر المصحف بثوبه ٤٥
الإمام أحمد بن حنبل وختم القرآن ٤٦
(٨) الأخفياء والجهاد في سبيل الله ٤٧
وأنت يا أبا عمرو ممن يُشنِّع علينا؟! ٤٧
اللهم اجعلني مع صاحب النَّقْب ٤٨
(٩) أهل الخفاء وعمارة المساجد ٤٩
سأل عنها النبي ﷺ ٥٠
قصة واقعية: عرفنا السر بعد موته! ٥٠
قصة واقعية: تبرعت ببيتها ليكون مسجدًا ٥٢
(١٠) البكاء من خشية الله تعالى ٥٣
لا يعلم بدموعهم إلا الله! ٥٣
ما أشد الزكام! ٥٤
يبكي الليل كله! ٥٥
دموع الخفاء أغلى من الدنيا ٥٦
بهذه الخشية فضُل علينا! ٥٦
(١١) الأخفياء وإكرام الضيف ٥٨
(١٢) الأخفياء وبر الوالدين (قصة واقعية) ٦٠

(١٣) الأخفياء ومشاريع البر ٦٢
قبل موته بأيام اكتشف أبناؤه السر! ٦٢
الخاتمة: ثمرات عبادة الخفاء اليانعة ٦٨
(١) صدق الإيمان ٦٨
(٢) السلامة من الرياء ٦٩
(٣) صلاح القلب وطهارته ٧٠
(٤) أعظم أجرًا ٧٠
(٥) حسن الذكر عند الناس ٧١
(٦) الثبات في المحن والفتن والشدائد ٧٢
(٧) رصيد ينفع عند الشدائد ٧٢
المصادر ٧٤
فهرس الموضوعات ٧٧

===❋❋❋===